

دران سیکلوجی



ناله موسی

سلامه موسى

دراسات سيكلوجية

موسى للنشر والتوزيع
مركز محمد الكفاح الهادف

العواطف المضغوطة والسلوك الشاذ

عندما يقول أحدها أنه درس فرويد فانه لا يعنى بذلك أنه يعلم بكل ما قاله وزعمه عن النفس البشرية . كما أن من درسوا داروين أو أيشتين أو سارتر أو هيجل لا يسلون بكل ما قاله هؤلاء . اذ ليس الدرس حفظاً ، عن ظهر قلب ، وليست السيكلوجية رقية تتلوها على المريض فيشفي . وإنما هي تعليل للفكرة أو الأفكار ومناقشتها . بل قد يكون الدرس بالانعطاف بها إلى وجهات أخرى غير وجهتها الأصلية بل أزيد على ذلك وأقول إننا ننتفع أحياناً بالخطأ كما ننتفع بالإصابة عند المفكر العظيم . وقد سبق لي ان قلت مثل هذا القول عن فرويد . وأخطاء فرويد أو ما يرميها البعض أنها أخطاء ، قد بعثت مئات المفكرين في أنحاء العالم المتمدن على بحث النفس البشرية يوافقون فيها فرويد أو يخالفونه أو يناقضونه ، ولكنهم في كل ذلك يبحثون

وهنا عظمة هذا المفكر الذي شرع قبل ستين سنة يتساءل : لم يسلك زيد هذا السلوك الشاذ ويسلك عمرو هذا السلوك السوى ؟ ثم يجيب بأن علة ذلك ترجع إلى أيام الطفولة . وصحيح أنه شرح

العوامل في هذه الطفولة بما يدعو إلى مناقشة فروضه ونظرياته . ولكنه
عين حدود المسألة وطالبنا بالحل إذا لم تقبل حله هو الذى وضعه
وماذا نقول في رجل يبدأ بحوئه بقوله إن لكل اتجاه أو حركة
أو سلوك علة ؟ وأتينا إذا كنا نجد رجلاً مستقيماً وآخر شاذاً ، ثم رجلاً
صالحاً وآخر مجرماً ، ثم امرأة مستهترّة وأخرى متحفظة فأتينا يجب أن
نبحث عن العلة في هذه الحالات : هل هي في العائلة ، في المجتمع ، في
الوراثة ، في الوسط ؟

لقد قال هو إنها في العائلة ، في علاقة الطفل بأبويه في السنوات
الأولى من العمر

ونستطيع أن نخالفه هنا ولكننا لا نستطيع أن نخرج بذلك من المشكلة
وهي : لماذا يختلف الناس في سلوكهم ؟

وهذا السؤال هو سؤاله . وهو في صميم السيكولوجية التي تبحث
« النفس » في ارتفاعها وانخفاضها ، وسلامتها ومرضاها ، واستقامتها
وانحرافها

وكلمات « النفس » ، و « العقل الباطن » ، و « مركب النقص » ،
و « النرجسية » ، و « مركب أوديب » ، هي كلمات مؤقتة تعمل كثيراً من
الشبهات . وعندما يتقدم العلم السيكولوجي يستطيع أن يضع المفردات
العلمية الدقيقة لهذه الكلمات المؤقتة . وكثير من المناقشات والاختلافات
يرجع إلى الشكوك التي تحيط بهذه الكلمات وغيرها لأنها غير محددة
المعاني

وأحب أن أصف مؤلفات فرويد بأنها فلسفة ، بل هي أحياناً فن

أكثر مما هي علم . ذلك أني أحس أنها أنارت بصيرتي أو زادتني .
وحفزتي على الدرس ، وإن يكن هذا الدرس يختلف بل ينحرف عن
اتجاهات فرويد . وربما يكون خير وصف لأفكار فرويد أنها خائرا
ويكفي أن نلخص أفكار فرويد أو نظرياته أو فروضه فيما يلي :

١ — الفكرة الاولى أن علاقة الطفل بوالديه ، منذ يولد ، الى السنة
الثانية من العمر تعين له مركباً ، أى عقدة نفسية ، تتألف من استجاباتها
موجوعها أخلاقه وتصرفاته سائر عمره ولو بلغ السبعين أو الثمانين من
العمر . وهذا المركب يسمى « مركب أوديب » ،

وفرويد يصف هذا المركب بأنه علاقة عشقية جنسية بين الطفل
وأمه . وهذا العشق يحدث غيرته بينه وبين أبيه . ثم ينشأ صراع في نفسه
، وذلك بين حبه وغيرته تتكون منه بذرة الاخلاق التي تنمو في اتجاهات
معينة وفق السنة الاولى من عمره

وإذا كنا نحن نشعر من هذا التفسير فانه ليس بيننا من ينكر أن
هي الطفل ببضات واحساسات جنسية غامضة تعم جسمه كله . بل هذه
الببضات تبقى طيلة أعمارنا وإن كانت الحدة فيها تتحيز أجزاء معينة
عندما نكبر وراهق

واختلافنا مع فرويد هنا ليس بشأن الإنكار لهذه الاحساسات
الجنسية في الاطفال وانما بشأن الخطوة التي يعلتها في مستقبل
الاخلاق بشأن هذه العلاقة بين الطفل وأمه وأبيه . وعندى أنه يسرف
في المبالغة في قيمة هذه العلاقة ، وأنه يصف هذه الاحساسات بأنها
« حب جنسي » مع انها لا تزيد على احساس المراهق بالذة الاحتكاك

بيده في « العادة السرية » . أى أنها احساس فقط . بل ان هذه العادة تعود الى هذا الاحساس الطفلى القديم

ولكنه هنا ، أى فرويد ، عندما وضعنا موضع التأمل لهذه العلاقة حملنا على أن نبحت موقف الأطفال في السنوات الثلاث أو الأربع الأولى من أعمارهم . فأنحرفنا عن الطريق الذى اتبعه هو في التفسير ولكننا هبطنا على عالم كبير في معانى التربية والاخلاق . وبذلك أخضب فرويد تفكيرنا حتى ونحن نخالقه ، ونتيجة ذلك اننا نقول الآن :

« ان أخلاقنا وميولنا واتجاهاتنا وأطماعنا هي ثمرة ما انفرس في نفوسنا مدة السنوات الثلاث أو الأربع الأولى من أعمارنا » .

٢ — والفكرة الثانية ان أحلامنا هي أفكارنا الحرة ، تبدو لنا في رموز تحتاج إلى التفسير حتى نعرف بها أعماق نفوسنا الخافية علينا . فقد يعتقد أحدها انه رجل صالح ولكنه في أحلامه ، التى لا تحتاج الى صعوبة كبيرة في التفسير ، يثبت أن له نزعات اجرامية خطيرة ، وانه يوشك أن يرتكبها ويحتاج الى التحذير والنصح

٣ — والفكرة الثالثة التى تعلنها من فرويد هي « العقل الباطن » وهي كلمة سيئة وأسوأ منها « اللا شعور » و « اللاوعى »

ومرجع العقل الباطن اننا نكره استذكار ما يؤلمنا أو يخرينا . السننا نقول لأحد الأصدقاء عندما يحدثنا عن شخص نكره « دعنا من هذه السيرة . لعنة الله عليه »

والمعنى هنا اننا لا نطبق ذكر الأشياء أو الناس الذين نكرهم وعندئذ نحن نساهم أو نكظم سيرتهم أو نضعفها حتى لا ترفع

الى وعينا، فتنام ، ولكننا بهذا العمل لائمهو الذكري . اذ هي تبقى
مختفية في العقل الباطن ،. فإذا حدث لنا حادث مشابه لحادث قد
ضغطناه أو كظمناه (أى نسيناه) قبل عشرين أو ثلاثين سنة فإن
عواطف الغضب ، أو الخوف ، أو الاشمتزاز ، أو الحزى ، تعود إلينا
قوة دينامية فتعين سلوكنا واتجاهاتنا

سینا الحادث النعوض وبقیت العاطفة التي كانت تلابسه محتبئة فيما
نسميه « العقل الباطن »

والاحلام تفرج عنا بعض التفريج برمز تحتاج الى التفسير
ولكن هذه العواطف المكظومة ، المضغوطة ، المنسية ، في العقل
الباطن ، كثيراً ماتحفزنا الى سلوك شاذ اجرامى كما ترى في المثال التالى :
عمد بعض السيكلوجيين في انجلترا الى تحليل وتنويم بعض المجرمين
الذين ارتكبوا جريمة القتل العمد فوجدوا أنهم جميعاً تقريباً عندما
ينومون ثم يستجوبون يردون على الاسئلة التي توجه إليهم بشأن
الاسباب لارتكاب جريمتهم بذكر أسماء أخرى غير أسماء الأشخاص
الذين قتلهم . وعند البحث عن أسماء هؤلاء الأشخاص نجد أنهم كانوا
خصوصهم أيام الطفولة

هنا البدره الخصبة التي زرعها فرويد

البيئة الأولى للعائلة هي كل شيء في الاخلاق تقريباً

وكان المجرم الذى قتل زيدا وهو في سن الأربعين أو الخمسين إنما
كان يقتل رمزاً . وكان هذا الخصم قد أحدث انفعالا عميقاً كظم في

نفسه ، وهو طفل ، تم جاءت المناسبة او المشابهة للوقف القديم ،
حدث الانتقام بقتل شخص آخر

٤ - والفكرة الرابعة التي تعلنها من فرويدي « فن ، التحليل .
والتحليل هو إيجاد حالة نضع الشخص فيها بحيث يسترخى كأنه في نوم
ويقكر فيها كأنه في حلم . وعندئذ ييوح ويستسلم للانفعالات التي كمننت
وتعفت في نفسه منذ عشرين أو ثلاثين سنة . كمننت لانه كان يضغطها
وينساها

وهو حين ييوح يرتاح فيذهب عنه التوتر والكرب اللذان لم يكن
يعرف سببهما

ثم هو يعرف مرجع التوتر والكرب . فيشفى منهما . لانه يتعقل
ويقول : « مادام السبب لهما قد زال فإني يجب أن أرتاح وأتخلص منهما .
هذه هي الأفكار الاربعة النخبة في فرويد . وقد تفرعت منها
عشرات الأفكار الاخرى كان فضل فرويد فيها الإيجاء والتلبيح

وميزة فرويد في جميع أبحاثه أنه جرى . ومخلص . فتى حط على
فكرة فانه لا يبالى أن يقول بها ويشرحها ولو خالفت مألوف الناس ،
وخاصة العامة من « العلماء ، الذين يحتفظون الخرافات فيما خرج عن
العلم الذي يدرسونه . ثم قد يدعوه لإخلاقه إلى أن ينكم بعض أقواله
كما فعل في « الرغبة في الموت ، التي ظن أنها حقيقته استخلصها من
التحليل النفسي لبعض المرضى . ثم عاد فأنكرها

إن الذين عاصروا فرويد ودرسوه يحسون أن وجودهم ووعيمهم
قد زاد في الدنيا

المرضى الذين يعلموننا

قرأت كتاباً هذا الأسبوع بعنوان "عاهات العبقريّة" ، مؤلفه الدكتور بيت بعثى على التأمل ثم التفكير
فقد تناول المؤلف ، هو طيب ، خمسة عشر مؤلفاً عبقرياً من
الانجليز والفرنسيين ، ثم نقب عن أمراضهم ، ثم وصل بينها وبين
عقرياتهم . بل علل هذه العبقريات ، في قسم كبير منها ، بهذه
الامراض

ولاقى أعرف هؤلاء المؤلفين الذين ذكرهم وقرأت لكل منهم
بعض مؤلفاته أو جميعها ، فقد لذى أن أتابعهم في الفرحة المديدة التي
كانت تنفس كارليل من وقت لآخر ، أو في الدرن الذي كان ينصب
الموت شبحاً دائماً أمام الشاعر كيتس ، أو في الضغط العالي للدم وهو
مرض الكاتب العظيم بالزاك

ولكن العاهة التي تحفز إلى التفكير ليست على الدوام مرضاً في
الجسم إذ هي قد تكون عاهة نفسية . كالعرج في الشاعر بيرون الذي
عبّره به أمه في لحظة غابت فيها عن وجدانها الأُموى ، فقال لها وهو

يتمزق : د أمى ، أنا ولدت أعرج ، . وكان فى هذه الكلمة انتقامه
وحزنه معا

أوفد تكون العاهة عجزاً جنسياً كما فى جون رسكين وكارليل .
فقد فرت زوجة الأول ولم تبال أن تفضحه . أما زوجة الثانى فقد
أحبته ولكنها لم تشكر أنها كانت تبث فى غرفة أخرى . ومثل هذه
العاهة جديرة بأن تحفز على السخط

هو سخط داخلى شخصى يعود سخطاً خارجياً اجتماعياً
يسخط المفكر على نفسه فيتنأ كله حقد على المجتمع . فيفسكر
ويحاول التفوق والتعظم كى يستعيز بهما عما يحس من هوان
وانكسار

هو الإحساس بالنقص يبعث على الرغبة فى التكمل
لقد كان لوفسكاديو هيرن الذى ألف أجمل الكتب عن اليابان
مشوهاً فأمضى حياته كلها وهو يصف جمال اليابان : أرضاً وماء وجبالاً
ونساءً وصبياناً

وشوهة يبرون الأعرج جعلته يرصد حياته على جمال الفن فى الشعر

* * *

كلنا نعرف أن الم الحفيف ينهب إلى النشاط . ولكن الكثير منه
يخذ أو يبيث

قليل من الرنخ يقوى وينشط ، ولكن الكثير منه يقتل

وأمرأضنا ، مثل النقرس ، والسكر ، والسفلس ، تهرز سموما أو
تحدث اضطرابات في أجسامنا . تتألم منها فتأمل أو تأرق فنفكر . أو
نستخط فندعو إلى ثورة أو تطور

كان داروين وكارليل يأرقان في الليل إلى قرابة الفجر . وكان كلاهما
يشكو الهضم السيء أو الفرحة المعدية . لم يكونا يعرفان مايشكوان منه
ولكن هذا الأرق كان فترة الاختبار للتفكير العلمي عند الأول .
وهو التفكير الذى أثمر نظرية التطور . كما كان فترة الاختبار الأدبي
عند الثانى ، وهو اختبار أخرج لنا عديداً من المؤلفات التى ألهمت العقول ،
وأنازت ، وأشرقت ، وأوجدت معانى جديدة للديمقراطية والإنسانية
في مثل « الابطال » و « الثورة الفرنسية » من مؤلفاته

ولكن سموم الجسم أقل فعلا في تحريك الذهن من سموم النفس
امرأة الأب التى عشنا معها وأتعستنا ونحن أطفال

أب ظالم مستبد حاول أن يكسر عود الطفولة . ولكن العود صلب
واستقام . ثم نشأ الطفل وهو يكره الأب . ثم كانت ثورته الساقطة
على هذا الأب ثورة على المجتمع كله يبحث عيوبه ويدعو إلى المساواة
والشرف ومكافحة الظلم . . . مكافحة ظلم الأب قد استحال إلى مكافحة
ظلم المجتمع

وشوهة الجسم التى ولدنا بها ، عرج أو دمامة ، هى في النهاية
شوهة النفس التى تحفز الأشوه على سد النقص ، ونشدان الجمال
والكمال

بل يجب ألا ننسى أن الفضيحة السرية في البيت قد تبقى وخزاً مخز
وينخس وينبه ويوقظ
وبهذه الأمراض ، أمراض الجسم وأمراض النفس ، يستحيل
الذكاء إلى عبقرية
ولكن « الذكاء » هو الذي يستحيل إلى عبقرية . أما إذا كانت
هناك بلاهة أو غفلة أو بلامه فان الاستحالة قد تكون إلى الإجرام .
هي عندئذ محاولة الأطفال لأن يكونوا عظماء أفذاذاً ولكن بأسلوب
الأطفال
ما هي العاهة التي جعلت فاروق يستحيل إلى مجرم ؟

* * *

كل ذى عاهة جبار
جبار في ذكائه حتى لقد يصل إلى منصب الوزارة ولو كان أعمى
ولكن إذا لم يكن له من الذكاء أساس ، فإنه يتسول حين يكون أعمى .

* * *

هؤلاء العباقرة الذين ذكرهم الدكتور بيت كلهم مريض ، إما
بعاهة في الجسم تولى وتورق . وإما بعاهة في النفس ، كدت أقول في
الشرف ، تولى وتورق
وفي كلتا الحالتين يؤدي الأرق إلى التفكير المشمر
كان كارليل ساخطاً يحس أنه مظلوم . إذ لماذا يقضى عليه القدر

بالعجز والهوان أمام زوجته ، وكانت من جميلات إنجلترا ؟
 وهو يتصور ويعد لقاءاته حين يأكل ولكنه مع ذلك يتألم
 وقد قيل له إنها قرحة في الأمعاء الصغيرة . وقيل له إنها زيغ في
 البصر . وقيلت له أسباب أخرى
 وقال هو أنه يتألم لكثرة الضوضاء . . . كلام مريض من
 رجل مريض

ساخط على نفسه ثم ساخط على المجتمع
 وهو يتحدث كما لو كان ندياً يأخذ نفسه بصرامة يحاول أن يأخذ
 المجتمع بمثلها . وهو لهذا السخط على المجتمع يؤلف كتابه « الأبطال »
 وكأنه هتلر يدعو إلى الزعامة وقيادة هؤلاء العامة الذين يقلقونه
 بضوضائهم وغلاظتهم وعاميتهم

وقد عاصر نابليون ولكنه لم يعده من الأبطال
 أجل . إن نابليون قد نهه إلى أنه مخدوع بالكثيرين من سماه أبطالاً
 لقد عاصر الثورة الفرنسية . فهو يتأملها ويفكر فيها كثيراً . ثم
 يؤلف كتابه عنها . كتاباً خالداً تقرأ كلماته وتصرخ : الشعب . الشعب .
 الشعب . وتحس لفرط حماسه أنه كتبه في نفس واحد
 وهو يبدأ هذا الكتاب بداية رمزية هي قصة العقد ، عقد اللؤلؤ
 الذي فقدته الملكة العاشقة في استهتار الملوك

وهو ينهى الكتاب نهاية رمزية هي قصة إعدام الملكين وإقدام
 الشعب الفرنسي على إيجاد سنة جديدة وشهور جديدة وأسابيع جديدة .
 هي السنة الأولى (١٧٩٢)

بداية الكتاب فسق واستهتار بين الملوك
ونهاية الكتاب شعب يكتب تاريخه بيده ويستولى على مستقبله
لقد ذهب عصر الأبطال ونحن في عصر الشموب

» « «

وهنا ننظر فيما يقوله عنه الدكتور بيت. فانه يذكر تحت عنوان
« مأساة زواجه ، أنه تزوج زوجته جين الجميلة الذكية
وكان لهما صديق هو فرود المؤرخ العظيم . وكان كارليل قد نص
في وصيته على تعيينه فيما على خلفاته (الأدبية) . وهذا يدل على أن فرود
كان على مكانة كبيرة ، بل حيمة ، عند كارليل
وكتب فرود ترجمة كارليل . وذكر فيها القطيعة القهرية بين
الزوجين . وأن كلا منهما كان يبيت في غرفة خاصة به
وكان كارليل يعوداً يشكو عللاً غامضة في جوفه وصف له لعلاجها
أن يتناول مسحوق الزئبق . ولكنه لم ينتفع به
وكما يحدث في مثل هذه الحالات جعل كارليل يستوصف الأطباء
والدجالين كي يشفي من متاعبه . فوصف له بعضهم تمارين رياضية .
ووصف آخر زيت الخروع . ووصف ثالث العلاج المائي . وكل هذه
العلاجات كانت عقيمة حتى قال : « لا أعرف بين أبناء آدم من هم أقل
منفعة من الأطباء »
وكانت هذه كلمة يأس . وكان يعود بين كل تجربة وأخرى إلى
مسحوق الزئبق (أى الطباشير والزئبق)

وكان هو يعتقد أن آلامه تعود إلى معدته وكبده
ولكن هذه الآلام كانت تنتقل في منطقة البطن مما جعل أحد
أطباء العيون يشخص مرضه بأنه زيف في البصر ، والواقع أن أوجاعه
كلها ذهبت عنه تقريبا حين أسن ولم يعد يكتب ويقرأ كثيراً

~ ~ ~

أعظم ما يفرينا بالسؤال عن كارليل هو :
• لو أن كارليل كان رجلاً سوياً سعيدياً قانعاً هل كانت
عبقريته تجد التعبير والبيان في هذا الوسط الذهني الذي خلده شهرته ؟
بل هل كان يمكن أن يكون عبقرياً ؟
• تأمل بتهوفن وبوديلير وجوجان ، واذكر ما كانت تكون نتيجة
صحة الجسم والعقل التامة عندهم في عبقرياتهم ، وبكلمة أخرى : إلى
أي مدى يتكيف العبقرى بما نسميه « حادثة » وقعت له في حياته ؟
• لو أن كارليل الحذر المتشكك كان كأحد الناس العاديين ، يستطيع أن
يأكل كما يهوى ومتى يهوى ، هل كان يصدر هذه الأحكام وهل كان
يغسل قلبه في السم والعلقم حين كان يعبر عنها ؟
• أننا لنعرف أن مرضى النفس يتألمون ويشكون مما يكابدون
من الزعزعة وما تولده هذه عندهم من إحساس النقص . ولكن هذه
الحال نفسها ، هذه الزعزعة وهذا النقص هي التي تعمل فيهم ، كما
لو كانت مهمازا ، كي ينشطوا ويخلقوا . كما أنها تزيدهم عمقا في البصيرة
حين يرون مثل هذا النقص في الآخرين

« لما وجد أنه لا يؤمن بعقيدته الدينية ، وعرف أنه لم يبق أمامه
غير المادية تراجع وهو في رعب . وقام في نفسه صراع يمزقها . حتى
ليقول : « لقد بقيت ثلاثة أسابيع وأنا لا أعرف النوم » . ولكن
هذه الحشرة الذهنية انتهت باهتدائه إلى « ميلاد روحى جديد »
« وهو في شقائه هذا يحس حباً جديداً للطبقات المسحوقة في الشعب
فيؤلف كتابه « علامات الزمن » الذى يشرح فيه انحطاط التفكير
السياسى ويحمل على فسق الساسة الذين لا يخدمون الشعب بل يخدمون
مصالحهم

« وهو حين يؤلف كتابه عن الثورة الفرنسية يفرح بل يطرب به
ويقول : « ها كم كتاباً لم يخرج مثله منذ مائة سنة . وهو كتاب يخرج
ملتبهاً مراقباً من قلب رجل حى »
« كان كارليل واحداً من عشرات أو مئات المرضى الذين علمونا

النفس السليمة في المجتمع السليم

كان المثل الرومانى يقول : « العقل السليم فى الجسم السليم »
 وبعض الناس يتلن أن هذا المثل حكمة ، مع أنه يخلو من الحكمة
 ولو عكس لكان أقرب إلى الصحة . ذلك أننا نجد الكثيرين من المرضى
 بالدرن أو السكر أو النقرس أو الروماتزم لا تؤثر أمراضهم فى سلامة
 عقولهم ، بل لعل هذه الأمراض تزيد عقولهم يقظة
 ولكن العقل المريض كثيراً ما يؤدي إلى مرض الجسم . كما نرى
 مثلاً فى من يتروم وهماً خاصاً يجعله يعزف عن الطعام ، أو هو يخشى
 الإفلاس أو الموت فيبقى فى قلق يؤدي إلى هزال الجسم
 والعقل مع ذلك ليس كل شئ . لأننا لانسلك فى الحياة بما لنا من عقل
 دائماً وإنما بما لنا من نفس
 نحن نستطيع بالعقل أن نجتمع أو نطرح الأرقام ونحل مشكلة
 حسابية أو كيميائية
 ولكننا بالنفس نحل مشكلة زوجية لأننا هنا لا نعتمد على منطق
 الأرقام وإنما على التقسيم الروحية ، أى الإنسانية ، أو الاجتماعية ،

وما تحمل من معاني الشرف والمروءة والخدمة

ما هي النفس ؟

هي كياننا الاجتماعي ، وهي العقل والعاطفة معا ، وهي موقف معين نتخذه نحو الكون والدنيا ، وهي مجموعة عقائدنا الموروثة والمكتسوبة . وهي القيم الروحية والاخلاقية التي نحترمها ونتعلق بها ، وهي إحساساتنا الفنية وأذواقنا ، وكل هذه تنتهي بتعيين اتجاه عواطفنا ومنهج العيش الذي نحمي به

والنفس لذلك أكبر من العقل

ولكن هذه النفس إنما تتكون بالمجتمع

وإذا لم يكن هناك مجتمع نعيش فيه فليس هناك نفس ، أي ليس هناك عواطف اجتماعية أو عقائد أو قيم أخلاقية أو إحساسات فنية الخ... ولكن هذه النفس تمرض أحيانا بالجنون أو الإجرام أو اللذوذ الجنسي وهذه الأمراض جميعها هي استجابة النفس لوسط اجتماعي معين ذلك أن المجتمع السليم يجب أن يخلو ، أو يكاد يخلو ، من الأمراض

النفسية

ولكن إذا كان المجتمع قد أفشى الفاقة فبمك الحرمان فإنه يحيل هداً كبيراً من الافراد إلى مجرمين يخطفون ويسرقون ويقتلون وإذا كان هذا المجتمع قد أفشى الخوف والقلق من المستقبل فإن أفراداه يفرون منها إلى الخمر أو إلى أي مخدر آخر أسوأ من الخمر وإذا طغى الخوف والقلق فإن أفراداه يفرون إلى الجنون ، بحيث محترق كل منهم ، وهو على غير وجدان بما يفعل ، جنوناً معيناً يرافق

إليه ويستقر عليه حتى يقضى سائر عمره وهو سكران بخمر نفسه بل يمتد
بها عن أسباب القلق والخوف

وإذا كان هذا المجتمع يفصل بين الجنسين ويجعل الزواج مع ذلك
مستحيلا إلا بعد سن الثلاثين فإن النفس المحرومة عندئذ تلد . وتنفش
العاهة النواسية بين الجنسين

وهذا كلام واضح لا يجدى فيه المكابرة بالجدل العاثر أو المغالطة الماكرة
فالأجرام والجنون والعاهة النواسية هي جميعها أمراض نفسية
تعود إلى أحوال معينة في المجتمع ، تعود إلى مجتمع غير سليم
فإذا توافر العمل والكسب للجميع زالت جرائم السرقة والاختطاف
والنصب

وإذا توافر الاختلاط بين الجنسين وأمكن الزواج في سن مبكرة
زالت العاهة النواسية

قلنا ، زالت ، ولكن هذا لا يعنى أنه قد يكون هناك واحد
أو إثنان في المائة يقومون في أحد هذه الأمراض لأسباب أخرى محلية
مثل نظام العائلة أو نشوء مركبات سيئة أيام الطفولة أو نحو ذلك
ونترك الأمراض وننظر فيما نسميه الإحساس الفني في الأدب
أو الفنان . ولنسأل أولا : لماذا يختلف الفن بين أمة وأخرى ؟
لماذا يكون للامان مثلا ألحان موسيقية وأغان ورقص تختلف
كلها عما عندنا من ألحان وأغان ورقص ؟

السبب أو الأصل لهذا الاختلاف واضح وهو أن جميع هذه
الفنون تعتمد على عواطف واتجاهات نفسية في أبناء الشعب . وهذه

العواطف والاتجاهات اكتسبها هؤلاء الأبناء من المجتمع الذى يعيشون فيه
 وإذا تغير المجتمع تغير الرقص والألحان والأغاني
 مجتمعنا يختلف عن المجتمع الألماني، ولذلك فنحننا الثلاثة هذه
 تختلف عما يضارعها عند الألمان

وقد ورثنا نحن فنوننا الثلاثة هذه من الاتجاهات النفسية التى هاشت
 بها مجتمعاتنا فى الألفين من السنين الماضية وهى ، أى هذه الفنون التى
 تسميها منحنى ، تعبر عن مجتمعاتنا المنحطة فى الألفين من السنين الماضية
 اعتبر الرقص مثلاً ، فإن الراقصة المصرية فى الثغاتها إلى البطن
 والكتفين وفى تنفى أعضائها وميوعتها تمثل الانوثة الحيوانية ، لأن
 المجتمع المصرى مضى عليه الفنان من السنين وهو يعامل المرأة كالوكانت
 أنثى فقط

ثم اعتبر الغناء الباكى المتهد الحزين ، فهو يمثل المجتمع المصرى
 الذى سحقته المستبدون والمستعمرون فى الألفين من السنين الماضية
 ومعنى هذا أن أبناء هذا المجتمع يكون بكاء سرياً فى نفوسهم ، ولذلك
 يرتاحون إلى المنفى أو الملحن الذى يعبر عن هذا البكاء فى الغناء أو اللحن
 الفنون اجتماعية ، وعبرية الفنان اجتماعية ، لأن الفنان هو الذى
 تبلور فى نفسه عواطف المجتمع الذى يعيش فيه فيعبر عنها بالأسلوب
 الفنى الذى يرتاح إليه أبناء هذا المجتمع ، لما دام أبناء المجتمع يكون
 ويتهدون فعليه هو أن يحسن البكاء ويتفنن التهد
 لقد كانت اسمهان تملأنا تمثيلاً عبرياً فى البكاء والتهد ولذلك يقول
 عنها محبوبها أنها أفضل من جميع المهنات

ونستطيع أن نذكر مثالين من الأدب العربي القديم وأن نعين البواعث الاجتماعية التي ألهمتهما. فإن عندنا كتابين عظيمين في هذا الأدب. أحدهما (الآغاني) الذي ألفه للبلوك والامراء والأثرياء وهو خمر ونساء في واقع الخمر والنساء وليس في أحدهما. والثاني هو (الف ليلة وليلة) الذي ألف للعامة بلغة العامة وبنوع خمر وطلعام ونساء. ولكن ليس عن الواقع وإنما عن الأحلام، أي أحلام الفقراء المحرومين الذين كانوا يشتهون ولا يجدون

الأول يصف لنا الحياة الواقعة في مجتمع المترفين، والثاني يصف لنا الحياة الخاملة في مجتمع المحرومين ولا عجب أن يقرأ الثاني كثيراً في مصر...

ومع هذا الذي قلت يجب أن أعترف بأن هناك ساخطين على الرقص واللعن والغناء في مصر. وأن هناك محاولات لتغيير هذه الفنون الثلاثة ولكنني أعتقد هؤلاء الساخطين منحرفين عن المجتمع المصري وذلك لأنهم نشأوا في الثقافة أو الحضارة الأوروبية أو تعودوها. أي أنهم نشأوا في مجتمع آخر فأخذوا بعواطفه وإحساساته

ولكن هذه الفنون لن تتغير إلا إذا تغير المجتمع المصري إلا إذا تغير في نظرته للمرأة وتقبل راضياً مركزها الاجتماعي الجديد باعتبارها إنساناً، وليست أثنى فقط، إنساناً له حق الإندام والاستقلال والتعلم والاختيار

وإلا إذا اختلط الجنسنان من المهد إلى اللحد بحيث لا يعرف أحد الجنسين الانفصال عن الآخر ولو لأسبوع واحد في حياته وإلا إذا نظرنا إلى الحياة نظرة الاستبشار والتمسك وكفنا عن الخوف

وإلا إذا توافر العمل والكسب لشبابنا وفتياتنا حتى لا يقلقوا
لقد رأيت الرقص الهندي حيث يرقص الرجال مع النساء . وفهمت
منه ، بل أثبتت ، أن المجتمع الهندي قد تغير
وأنا أستنتج هذا التغير في المجتمع الهندي بهذا الرقص الجديد أكثر
مما أستنتجه باختيار شقيقة نهر ورئيسة هيئة الأمم
أن النفس السليمة لا تكون إلا في المجتمع السليم . وهذه الفنون
الجميلة هي في صميمها ، فنون نفسية . وهي مريضة عندنا لأن المجتمع
مريض

هذا العلم الجديد

حدث منذ مدة قريبة أن أحد البنائين ، وكان قد تجاوز الحنين ، احتاج إلى أن يقف على خشبة تعترض وتصل بين جدارين . وكانت على ارتفاع نحو عشر طبقات من البناء . فلما توسط الخشبة نظر إلى أسفل فوجد الهوة التي تفصل بينه وبين الأرض ، فتجمدت عضلاته ، وجعل يصرخ . كأن كابوساً كان قد استولى عليه . وعجز عن أن يتقدم أو أن يتأخر

وحضر إليه زملاؤه وجعلوا يشجعونه على النهوض . ولكنه لم يستطع . ولم تكن الخشبة تسع لأكثر من واحد يقف عليها ، ولذلك لم يقترب منه أحد لمغاوته على النهوض . واقتصروا على تشجيعه وتحريضه وبعد أن ألقنوه بأن يكف عن الصراخ وبعد أن استطاعوا تهدئته قليلاً استطاع ، وهو يلهث ، أن يصل إلى نهاية الخشبة وينجو

وجعل زملاؤه يضحكون ويسخرون منه ، ويردحون ويحيثون على الخشبة في نشاط حتى ضحك هو من نفسه . وانتهى عمل اليوم وقصد كل منهم إلى منزله . ولكن في الصباح التالي لم يحضر هذا العامل

ولم يره زملاؤه بعد ذلك . ويبدو انه ترك هذه الصبغة واختار ما هو
أقل خطراً وخوفاً منها

• • •

وحدث ان فتاة تزوجت بضغط من أبويها . ولم تكن تحب زوجها
وليس في الدنيا شيء أو إنسان نكرهه قدر ما نكره الإقتراب الجنسي
من شخص لا نحب . واشتازت الفتاة . ولكن عاطفة الإشمزاز عمت
كيانها النفس كله . فصارت تشمز من الطعام أو بعضه فلا تأكل .
حتى هزلت . وأصبح اختيار الغذاء لها مشكلة حتى بعد أن انفصلت
عن هذا الزوج الذي كانت تكرهه . . مشكلة ماقية مع زوال أسبابها
الغريبة

• • •

وحدث ان فتاة جميلة كان أبواها يتعلقان بها ويدللانها . ومات
الأب . وماتت الأم بعده ببضعة شهور . وتغيرت الدنيا الباسمة إلى
دنيا عابسة في وجه الفتاة . فجعلت تنفرد وتنزل في غرفتها وتحلم بدنيا
أخرى في الخيال غير هذه الدنيا . ولذ لها الخيال فاستمسكت به
وأرسخت كيانها النفس عليه . واطمأنت إلى حياة الخيال : وكان هذا
جنونها الذي رفضت أن تتركه وتعود إلى دنيا الواقع

• • •

قمنا ثلاثة أمثلة عن الاضطراب النفسى الذى قد يصيب أى إنسان

إذا كانت طفولته قد سارت في غير الطريق السوى بحيث يكون قد
أنهك وأزعج وهو دون الثالثة أو الرابعة من العمر . فإنه في هذه
الحال يكمن الخوف في نفسه حتى إذا اعترضه ظرف مماثل لهذا الخوف
القديم عاوده الفزع واستولى عليه جمود الرعب كما حدث في البناء الذي
تجمد على الخشبة

وإذا كان قد مرت به حادثة أو حوادث جعلته يشمئز وهو طفل
فان اشمئزاه هذا يبقى كامناً في نفسه . فإذا بلغ العشرين أو الثلاثين
وطراً عليه طارئ يدعو إلى الإشمئز فار به إحساسه القديم . كما
حدث لهذه الفتاة

وإذا كان الطفل قد دلل في الطفولة وأسرف أبواه في تدليله حتى
سلا له الدنيا كما لو كانت مفروشة بالورود ، ثم إذا مات هذان
الأبوان ، فإن الطفل لا يطيق العيش بعد ذلك . ويستسلم لخيال الجنون
من الذي علينا ذلك ؟

الذى علينا هو فرويد . وقد علينا في كثير من الأخطاء وسلك
بنا طريقاً يحل بالأشواك . حتى لشكاد مهمتنا تقتصر على التخلص من
الأخطاء والأشواك

لا . لم علينا فرويد علماً ولكنه فتح بصيرتنا لفهم الطبيعة والأشياء
فتح بصيرتنا . ثم نحن نحاول الآن أن نفتح عقولنا بالعلم ، أي
بالتجارب

جعلنا من فرويد ، ومن أنصاره وأصدقائه ، أن السخرات الأربع الأولى من العمر هي كنز المواطن الذي نستمد منه سائر أعمارنا . وإيما عاطفة سيئة تختبئ في كيانتنا النفس فإنها ستشار وينفض عبارها على حياتنا إذا اصطدمنا بأحداث تولد ما يشبه أو يقارب تلك المواطن المندسة في نفوسنا أيام الطفولة

كلنا يستطيع ، إذا كان سليماً ، أن يقف على الخشبة التي تصل بين جدارين في بناء عال . وكل فتاة تستطيع أن تتحمل هذا الاشتمزاز لوكت ما نغم تلساء . وكلنا يستطيع أن يتحمل موت أبويه . ولكن ذلك البناء الذي رعب وتلك الفتاة التي اشمازت وتلك الاخرى التي دلت ، كل هؤلاء قد أسىء اليهم في طفولتهم فعرف الاثنان الاولان الخوف . وعرفت الثالثة التدليل المسرف الذي أجبرها بعد ذلك عن الاستقلال .

جعلنا من فرويد ، ومن أنصاره وخصومه ، أننا إذا كلفنا خرقنا أو اشتمزازنا أو شهواتنا أو همومنا أنها تستحيل إلى بخار محبوس ينفجر هندياً مكد مكاناً ضعيفاً يخرج منه . وأعظم ما يسيء له هذا المكان الضعيف أن يعترض الانسان صعوبات تشبه ما اعترضه أيام طفولته

الشيء يبعث الشجى

ولكن هناك أحياناً شجى مكتوماً قد كلفناه ونسيناه . فإذا حدث لنا ما يثير مثله أو أقل منه كثيراً تذكرناه وأحييناه

اعتبر هذا المثال :

كان بافلوف ، الذي ربط بين الفسيولوجية والسيكولوجية ، يجرب

تجاربه في الكلاب . وحدث أن قاض ماء النهر المجاور لمكان الكلاب
واضح الماء أفضاها لجمعت تلبع وتصرخ ولا تبتعد مهرباً . وكان صراخها
هستيرياً ، أي كان رهيباً وفزعاً وإرتماشاً ، لأن الماء كان يتزايد
ويوشك أن يخنقها

ثم ادركت وانقذت

ولكن هذا الرعب والفزع والإرتماش مع الصراخ الهستيرى كان
يعاودها إذا دخل قليل من الماء ، قليل جداً ، إلى أفضاها وبلل
أيديها وسيقانها

عاطفة قديمة مكظومة في حبيسة القفص تثار من النسيان فتذكر
لأقل حادث يقاربها أو يشبهها

وهذا هو شأننا نحن أيضاً . ألا ترى الأم تسمع عن أم قد مات
ابنها فتذكر هي أيضاً ابناً الذي مات قبل عشرين سنة . وتبكي
وتتجنب ؟

لما ألح الالمان على لندن بالقاء القنابل من طائراتهم عمدت الحكومة
البريطانية إلى ترحيل الاطفال إلى أما كن بعيدة في الريف كي تأمن
عليهم . ووجد أن أولئك الاطفال الذين تحملوا الغربة ، بل تحملوا
الايثار ، هم الذين لم يعرفوا المخاوف والمفازع ولم يضرىوا ولم يكظموا
في سليم الماضي . أما الذين ضربوا أو أخيفوا أو أفوهوا فكانوا يضطربون
ويرهبون لأقل حادث خفيف

والعبرة أننا إذا أردنا السلامة لابنائنا عندما يكونون شباناً وكمهولاً

وشيوخاً فإن خير ما نفعله أن نؤمن طفولتهم من الخوف والفرع
أجل . ومن الاشعزاز والتدليل

ما الذى يعمل لسلام النفس ؟
أعظم ما يعمل له ، كما قلنا أن نعيش مع أبوين سليمين بحيث لا يجد
في طفولتنا خوفاً أو اضطهاداً أو تدليلاً . وأعنى التدليل المسرف ، لأن
التدليل المعتدل نافع إذ يجعلنا نهفو إلى البيت ولسعد بذكرى الابوين
طيلة حياتنا

وأسوأ ما في الخوف والاضطهاد أننا نكظم . ولا بد أن تكظم .
لأننا لا يمكننا ، ونحن أطفال ، أن نرد اللطمة أو نفطن إلى أن ما نخاف
منه لا يستحق هذا الرعب الذى نحسه

ومعظمنا يشقى لأنه خائف . أو بكلمة أخرى لأنه جبان
نحن جبناء لأننا في طفولتنا مرت بنا مخاوف كثيرة . فكنت .
ثم واجهنا مجتمعاً يجعلنا جميعاً مغامرين ، نكسب ونخسر ، ونخشى الغد ،
ولانتق المستقبل الذى قد يفاجئنا بالمرض أو الافلاس أو موت الابناء
أو نحو ذلك

مخاوف أصيلة في المجتمع تثير مخاوف طفولتنا القديمة فيكون من ذلك
شقاؤنا وتوتراتنا

ولكن الشجاع هو الذى لم تمر به مخاوف في الطفولة إلا في يسر ، أو
كان مقدارها صغيراً فتنقلب عليه ، فهو يجابه الدنيا وما فيها من مغامرات
وهو شجاع لا يبالى الفقر أو المرض أو أية فاجعة أخرى . أى أنه يجتاز

الحشبة التي بين الجدارين بلا خوف وهو سعيد بهذه الشجاعة
 هذا العلم الجديد الذي أثار بصيرتنا ويكاد هذه الأيام ينير عقولنا
 هو علم النفس البشرية . هي السيكولوجية
 وهو الآن علم ، أى تجازب في الكلاب والقرود، والسيان والنساء
 والرجال المتزوجين والعرب، والعاملين والعاطلين والاذكياء والبلهاء
 وقد تعلمنا منه أن المجتمع يصنع الفرد . والعائلة تصوغ الانسان .
 والعائلة بالطبع جزء من المجتمع بل هي أخطر أجزائه في الموقف
 السيكولوجي

وتعلمنا منه أن المبتقية من ناحية ، والجريمة من ناحية ، أحدهما
 طرف لفضائل المجتمع وذاك والاخرى طرف لردائله وتوتراته
 تعلمنا منه أن الامراض النفسية هي أمراض قرررها المجتمع لأفراده
 لأنه رسم خططاً وعين آفاقاً وأوجد وسائل لاتطاق ، فكان منها الخوف
 حتى إذا سار فيها الفرد اكتسب عواطفها وتحطم وجن . ولن يحيا الفرد
 حياة سليمة إلا في مجتمع سليم وعائلة سليمة
 وأيما تغيير في المجتمع لابد أن يحدث تغييراً آخر في العواطف
 والاخلاق والاهداف والوسائل بين الافراد ، ولن نستطيع أن نغير
 الاخلاق في أمة بالنصح والإرشاد وإنما نغيرها فقط بتغيير وسائل
 العيش والإرتزاق

لا . لا يمكن فرداً أن يسعد إذا كان يعيش في مجتمع شقي . وأولئك
 الذين يعيشون في مجتمع شقي ويحاولون تحقيق السعادة لأنفسهم يتخذون

عادة أحد طريقين :

الطريق الاول الذى يسلكه الاكثرون ، الانفراديون ، هو الهروب من المجتمع بالاعتكاف والابتعاد عن مشاكله . وقد يشربون الخمر أو يقرأون القصص البوليسية كى يخذروا عقولهم ويغيثوا عن حقائق هذا المجتمع . وهؤلاء سليون

والطريق الثانى الذى يسلكه الاقلون الاجتماعيون هو طريق الكفاح الذى يمارسونه كى يغيروا هذا المجتمع ويصلحوا مؤسساته التى تعفنت ويوجدوا الطمأنينة بدلا من الخوف . وهؤلاء ايجابيون . ولكنهم يفعلون ذلك فى غير الإسراف والشطط اللذين وقع فيهما القديس قولستوى

مرضى النفس وعلاجهم

هناك من الأمراض ما نسميه ، نحن العامة ، جنونا أو شذوذاً بصيب أحدنا ، فيحاول اخفائه لأنه يخزيه ، أو هو يلجأ إلى طبيب النفس . وقد يجد فيه المعالج التزيه أو المدجل النصاب وقد عرضت على إحدى المحاكم بالقاهرة قضية من هذا النوع اصطدم فيها أطباء الأجسام بأطباء النفوس ، كل منهم يقول : « هذه دائرة اختصاصى » وكل منهم يتهم الآخر بالجهل أو بما هو أكثر منه ومن الحسن أن يثق الشعب على بعض الحقائق كى يستنير عن هذا الموضوع . فانتا ، فى بلادنا ، نخرج رويداً رويداً من المجتمع الزراعى إلى مجتمع المدينة . ولذلك هرفنا السرعة والهرولة فى حياتنا ، وتحملنا المسئوليات الجديدة والتكاليف المرهقة ، ولم نعد نستسلم للقدر . وتأخرت مواعيد الزواج وعم الشبان من الجلوس حرمان بطول أو بقصر ، وظهرت المدارس والمعاهد بواجباتها المتعددة التى لا يتحملها جميع الصبيان أو الشبان . وأصبح عيشنا ، فى الأغلب ، مباريات اقتصادية تحزن الخفاف أو المتعطل وتبحث على زيادة الجهد لزيادة الثراء .

وبكلمة أخرى : كنا نميش حياتنا الريفية القروية في استرخاء ورضى
وقناعة فأصبحنا نحيا في المدن في توتر وسخط وخوف
ولذلك نحن نمرض . أى أن نفوسنا تتوتر . ثم لا تطيق التوتر
فتنهار

وحسبك أيها القارئ أن تعرف أن أعظم الأام في الأخذ بأسلوب
العيش المتمدن العصري بكل ما يلابسه من عادات عاطفية وذهنية هي
الامة الأمريكية ، ولذلك فإن عدد الاسرة للأمراض العقلية والنفسية
في مستشفياتها يزيد على عدد الاسرة للأمراض الجسمية
ولست أقصد إلى القول بأن الامراض النفسية هي ثمرة الحضارة
العصرية وحدها . فإن بين الريفيين من يمرضون أيضاً . ولكن لكل
مريض ريفي واحد نجد نحو خمسين مريضاً . متمدنا ، بل وربما أكثر
إلا في حالات تعدد الأزواج التي تحدث أمراضاً نفسية عديدة بين
الزوجات

والامراض النفسية ليست شاذة كل الشذوذ كما تتوهم فإنها جميعاً
مظاهر مسرفة لحالاتنا نحن السويين الاصحاء ، فإن الفرق بيني وبين
المريض أني أنا أقلق في الصباح عندما أعرض لواجبات اليوم . ولكن
القلق خفيف أتحملة في سر . ولكن مثل هذه الواجبات لا يتحملها المريض
لأنها تبدو له كما لو كانت جبالا

ولست جميع الامراض النفسية جنوناً مطلقاً يحتاج إلى المارستان .
فإن هناك حالات من أمراض العقل والنفس يخفيها المريض خرباً

ويحاول التعاج منها ، أو لا يشارف ، إذ قد يلتدها . وهي تجعله عرضة
للفضيحة أو السجن أو تصيبه بالأم لا تطلق سنجيل فيها حياته إلى
سواد وظلام

أعتبر هذه الحالات التي أؤكد لك أنها عن أشخاص حقيقيين :

١ — موظف لا يقل مرتبه السنوى عن ٨٠٠ جنيه لا يتمالك أن
ينشل محفظة جاره في الترام أو القطار أو حتى في زحام

٢ — شاب رياضى إذا وصل إلى ميدان باب الحديد عرق وارتعش
لأنه لا يطيق الاحساس بأنه في ميدان رجب مكشوف . فهو يتقصد إلى
الجدران المحيطة بهذا الميدان ويلتزم السير إلى جوارها حتى يصل إلى
المحطة . ومع هذا الحرص لا يترك الراحة

٣ — شاب آخر قد لزمه الإشمزاز . فهو يكره خبز الطابون .
ولذلك يشتري الدقيق بنفسه ، ويعجنه ، ويخبزه . وهو الذى يطبخ
طعامه بنفسه بعد أن يهرأ اللحم بالصابون واللوقة . بل قد يبلغ إشمزازه
من مياه القاهرة أن يسافر إلى الإسكندرية فيملا صفيحة أو صفيحتين
من ماء البحر الملح . ويعود بها إلى القاهرة فيبخرهما ثم يكثف البخار
حتى يجد الماء العذب للشرب

٤ — صبي في الثالثة عشرة دل الفحص على أنه فوق الذكاء العادى ،
ولكنه متخلف لا يفهم الدروس

٥ — شاب مصاب بالعجز الجنسي مع عروسه ، مع أنه لم يتوقع
هذا من قبل . لم يحدث له قط في ممارساته الجنسية السابقة

٦ - رجل وقور فوق الخمسين ولكنه يأخذ بمذهب أبي نواس ،
ويعجز عن الاقلاع عن رذيلته

٧ - شاب يسوق السيارة ، ولكن تكاد تكون له ملكة بارعة في
التصادم

٨ - شاب يجد أرهاقاً في البيت وفي المدرسة أو الجامعة مع حرمانه
ما يلهو به من نزهة أو زيارة للبلادي. وهذا أدى به إلى أرهاق جنسي
دائم. فهو إزاء كل هذا الضنط يطلق الدنيا كلها ويخترع لنفسه عالماً
من الأحلام ، ويحزن

هذه أمراض لا يعرفها الناس لأن أصحابها يخفونها ، وهي بالطبع
تحتاج إلى العلاج . ويمكن علاجها

ما هي الأسباب للأمراض النفسية والعقلية ؟

اعتقادي أن الشخص الذي أمضى طفولته بين أبوين حكيمين ،
لم يدللاه ولم يضطهداه ، ولم يجد قسوة أو تدهيباً لجسمه أو نفسه ، ولم
يجد ما أخافه إلى درجة الإفزاع ، ولم تثر غيرة أو ثورته لوجود أخوة
قد استبدوا به ، إلى غير ذلك ، مثل هذا الشخص يستطيع أيام شبابه
أو كهولته أن يتحمل جبالاً من المصاعب دون أن تزعزع نفسه

ولكن للأسف الآباء الحكاء قليلون . ولذلك تبرز أيام الطفولة
بروزاً مؤلماً عند جميع المرضى . والطبيب المعالج يحاول أن يثير عند
المريض ذكرياتها . فنحن نعيش في مجتمع كثير الصعوبات . فإذا
اصطدنا بصعوبة ونحن في سن العشرين أو الثلاثين مثلاً فإننا نثير ،
من حيث لا ندري ، صعوبة أخرى مماثلة لها اصطدنا بها أيام الطفولة

فيكون الخوف ، أى خوف الاطفال المرعب ، مع أننا قد نكون في سن العشرين أو الثلاثين . ومع هذا الخوف لا ندرى أصله أو مآله . أن سلوكنا العام في المجتمع ينبعث من عواطفنا . ولكن عندما نكون أصحاء سويين نكيف هذه العواطف وراقبها ونوجهها

وهناك عواطف كامنة في النفس ، معظمها من أيام الطفولة تحركنا نحو اتجاهات وتثير فينا انفعالات يعجز العقل أحياناً عن التسلط عليها وعندئذ يحدث المرض . أى عواطف وانفعالات بلا عقل . فتجسّر خوفاً أو قلقاً أو رغبة في الانتحار أو اشتزازاً أو شذوذاً جنسياً أو غيرة لا تطاق . أو نحو ذلك

وإذا كانت هذه الانفعالات والعواطف قوية طاغية فإننا نفر إلى راحة السكر بالخمر . وأحياناً قد ننثني منها بأن نلجأ إلى الجنون ، إذ هو الراحة الكبرى التي تطرد الهموم نهائياً . ولكنها راحة الموت النفس

كيف نعالج هذه الأحوال :

للأطباء النفسيين علاجان : أحدهما سريع سطحي وهو « التوسيم النفسى » الذى لا يريد على أن يكون إيماء مركزاً . كأن نوحى للمريض الخائف بأنه ليس خائفاً ، أى أنه شجاع جري . والنتيجة هنا سريعة ولكنها غير ثابتة . إذ قد يعود هذا الخوف كما كان أو بصورة أخرى

والعلاج الثانى هو التحليل النفسى . وهو أسلوب بطيء النتيجة ولكن الشفاء يثبت . وهو يستهلك من الوقت والمال شيئاً كثيراً .

ولذلك لا يستطيعه سوى الأثرياء أو المتوسطين الميسورين . والنظرية التي يقوم عليها التحليل النفسي أن هناك عواطف مخبئة أو مكظومة لا يعرفها المريض نفسه ، وأنتا تستطيع أن تثيرها بالجديث معه حتى يتذكرها ويعرف أسبابها وظروفها . وهو متى عرف الأسباب والظروف شل ، لأنه يسلط عقله على ما كان قد نسيه من هذه العواطف والاحساسات والانفعالات .

وعندي أن لكلمات اللغة أكبر قيمة في التحليل النفسي . لأننا نرفع بها المريض إلى مستوى جديد من الحكمة والفلسفة ونكسبه بصيرة في الحياة . بل نحن أحياناً نجعله يقف موقفاً جديداً من الحياة فنغير شخصيته ونكاد نحيله إنساناً آخر غير ما كان يعرف به نفسه .

التحليل النفسي هو : كيف نجعل المريض يعالج نفسه بعد أن عرف داءه الدفين ؟ . كيف نجعله كياً يجابه صعوبات الدنيا ، في ضوء اليقين من صعوبات الطفولة ، ثم صعوبات المجتمع ، كما لو كان فيلسوفاً ؟

وإذن من هو الشخص الجدير بمعالجة الأمراض النفسية أرجو أن أصرح ، في وجه المعارضة المنتظرة ، بأن رجل مادي مائة في المائة . وأن كل ما نسميه مرضاً نفسياً إنما يعود إلى تغيرات داخل أجسامنا ، أي إلى مادة . ولكننا نجعل هذه التغيرات في الوجدان الحاضر ، كما نجعل الأسباب الجسمية لها . واعتقادى أن هذه الأسباب سوف تعرف بقدر عشرين أو ثلاثين سنة

بل نحن نبصر من الآن بعد هذه الأسباب . فإن صدمة الخوف قد تحدث التهابات في الجلد أو قرحة في القناة الهضمية أو إسهالاً متكرراً أو المرض السكري أو ضغطاً عالياً في الدم . ومعنى هذا أنه هناك كيميائياً يمرض بها الجسم وقت المرض النفسي . وهناك فهم هذه الكيمياء منهم أيضاً حركة النفس في الجسم

ولكن إلى أن نصل إلى هذه التفسيرات الجسمية نحتاج إلى العلاجات النفسية . أي التشويم النفسي والتحليل النفسي ثم التأليف النفسي . وأقل ما يقال هنا أننا وجدنا الشفاء عند استعمالها

ان الأمراض النفسية أو العائلية إنما تنشأ من العلاقات العائلية في السنوات الأربع أو الخمس الأولى من أعمارنا ، أي كيف تعاملنا أبوانا وإخواننا والخدم . وماذا كانت احساساتنا وانفعالاتنا نحوهم . وهل وجدنا عندهم الحب أو الكراهية والعناية أو الإهمال والطمأنينة أو الخوف . فإن كل هذه العواطف سيتردد صداها بعد عشرين أو ثلاثين سنة أو أكثر

والأمراض النفسية تنشأ أيضاً من علاقاتنا الاجتماعية ، أي مقدار الطموح الذي يبعثنا على السعي ، ومقدار الكسوف التي نلقاها للتأخر في الزواج أو التخلف عن النجاح . وما هي الاصطدامات الاجتماعية التي تصادفنا . الخ

إن المرض النفسي أو العقلي هو مرض العلاقات العائلية والاجتماعية ، ويمكن لذلك أن نسمي الأمراض النفسية أمراضاً اجتماعية

أما المرض الجسمي فهو مرض البكتريا والفيروس وتقص
 الفيتامينات والأملاح
 قد يقول لى منها أحد أطباء الأجسام : لا تلس الغدد الصماء
 نعم . لا أسأها ولكننا لا نعرف عنها كثيراً . وقصارى ما وصلنا
 اليه أننا نخذشنا سطوحها . والى أن نعرفها سيقى التنويم والتحليل
 معتمدنا الوحيدين فى علاج النفوس المعبوطة
 واذن من يمارس الطب النفسى

يمارسه أى السان قد درس الطب النفسى . ولا عبرة بأن يكون
 قد درس قبل ذلك طب الأجسام أو علم الاجتماع ، أو الفلسفة ،
 أو الآداب . فإنه يجب قبل كل شيء أن يكون قد درس علم النفس
 أى السيكولوجية ، واختص منها بفرع العلاج النفسى
 وفرويد نفسه ، أبو التحليل النفسى ، هو الذى أوصانا بذلك
 وأطباء النفس فى الولايات المتحدة قد يكونون أطباء جسم أو
 لا يكونون . وكذلك الحال فى إنجلترا . ولكن يجب وجوباً قاطعاً
 على من يعالجه بالتحليل أو التنويم أن يكون على دراية وعلم بفننه
 وإذا كنا نحشى أن يتفشى بيننا الدجالون ، فإن من السهل أن نتوقى
 ذلك بأن نطالب جامعاتنا بتخصيص دراسات للمعالجة النفسية ،
 يحصل دارسوها بعد المدة المقررة للدراسة على دبلومات ترخص لهم
 هذه المعالجة

نحن نفكر بأفواهنا

هذا مقال في الفلسفة ، أو في السيكولوجية ، إذا شئت ، ولكنه مع ذلك ليس الغارز لأنى واثق أن كل من يقرأ سيفهمه
وعنوان المقال : نحن نفكر بأفواهنا ، قد نقلناه عن تريستان تازارا ، ومعناه أننا نفكر بالكلمات التى تنطق بها ألسنتنا . وإذا لم تكن لنا كلمات نفكر بها فأننا عندئذ لن نستطيع التفكير إلا بمقدار ما يفكر الثور أو الجمل

فقد انتهى المفكرون المتمقون الى أن الناس والأشياء والطبيعة والكون ليس لها أى معنى أو مغزى الا فى وجداننا وكلماتنا والمعنى من عبارة : وجداننا ، هو كيف أجد نفسى فى هذه الأشياء ؟

ماهى صلتى بها ؟ ما قيمتها عندى ؟ ما هى أبعادى منها أو أبعادها
منى ؟ كيف أفهمها ؟

الاعتقاد العام بين الناس أننا نعبر عن أفكارنا بالكلمات ، كأن اللغة وسيلة للتعبير عن التفكير

ولكن اللغة أكبر من ذلك . فإنها عند كثير من الناس كل التفكير الذي يفكرونه ، وعندنا جميعاً هي التي تكيف التفكير وتكسبه طرازه وشكله . بل أحياناً توجد

ونمونا الفكري وتطوره هنا نمو اللغة وتطورها ونحن نعين سلوكنا مع الناس في صور أخلاقية ، مثل المروءة ، الإنسانية ، الحب ، البغض ، الشائنة . وهي جميعها صور تثير عواطفنا وتوجهنا وتكيف إحساسنا وتصرفنا ، وإذا فقدنا هذه الكلمات فإننا نفقد أيضاً هذه العواطف والإحساسات ولا يبقى إلا مقدار ما يحد ثور أو جمل منها

وكذلك الصور الذهنية ، مثل السياسة ، الدبلوماسية ، الثقافة . التطور ، العلم ، فإننا ما كنا لنجد هذه الصور في أذهاننا لولا هذه الكلمات

إننا نقول : أمس وغد ، ورجل شهم ورجل نذل ، وحنان الأم وعقوق الابن ، وجميع هذه المعاني نفقدها لولا هذه الكلمات التي تعينها وتربط أذهاننا بها

بل إن للكلمات أكثر من التعيين والربط ، إذ هي تصوغ وتكيف . بل هي تستحدث في نفوسنا عواطف وعادات عاطفية ما كنا نجد لها لولاها . فإن كتاب القصص عندما قد جعلوا عاطفة الحب شيئاً مألوفاً ، بل هم صاغوا أسلوب الحب ، وذلك بما ألفوا من هذه القصص التي شرحوا فيها ، بكلمات معينة ، هذا الأسلوب

وقد تعترض بان الحب كان موجوداً من تأليف القصص . وهذا صحيح ، وان يكن وجوده وقتئذ شيئاً يكاد يكون شاذاً مخجلاً . وكلمة الحب كانت من كلماتنا قبل تأليف القصص العصرية . ولكن البكبة شاعت في أيامنا وأثارت عاطفة كانت راحة كآمنة . كما عيلت لنا هذه القصص صيغة الحب كيف يكون وكيف يسلك الحبان

وقد سبق لى أن قلت إن كلمات الدم والعرض والثأر قد عيبت أسلوباً من الاغتيال والقتل في بعض مديريات الصعيد الأعلى . وأن جرائم القتل والاغتيال هذه كان يمكن أن تنقص ، بل تزول ، لو أن هذه الكلمات كانت قد محيت من لغة السكان في قنا وسوهاج

وهناك من يزعمون أن اللغة مرآة للأفكار ، ولكن الواقع أنها أكبر وأخطر من ذلك . اذ هي من ناحية صياغة للأفكار ، وهي من ناحية أخرى تفسير للأفكار . فكلمة الحب الآن تفسر عاطفة كانت موجودة قبل مائة أو ألف سنة في مصر . ولكن التفسير تغير . ولذلك تغير أسلوب الحب . والفضل في هذا لكتاب القصص

أسلوبنا في التفكير هو في صميمه أسلوبنا في التعبير . لأننا لن نستطيع أن نفكر بأكثر مما تعطينا الكلمات من معار . وعلى قدر النقص في معاني الكلمات يكون النقص في تفكيرنا
كيف نفكر ؟

عندما ننامل طفلاً لم يتعلم اللغة بعد نجد أنه يعبر (أى يفكر) بأصوات وحركات نفهم منها حالته . فنسمع صوتاً يدل على حركة

في حنجرتهم وتجد تعبيراً في وجهه ورفسات من قدميه وإشارات يديه
هذه هي لغتنا الأولى . أى هذا هو تفكيرنا الأول . فإذا كبرنا
تكللنا ، أى اقتصرنا على حركتي الحنجرة واللسان وتركنا حركات
الأيدي والأقدام . ولكن حركاتنا اللغوية هذه تتعلمها من الكبار
ولا نتعلمها . ولذلك على قدر ما في الكلمات التي نطق بها ، بحركات
اللسان والحنجرة ، يكون تفكيرنا

وبهذه الحركات ، بهذه الكلمات ، قد أصبحت لنا ثقافة ،
أى نحو عشرة آلاف أو عشرين ألف كلمة (حركة في الحنجرة
واللسان) صرنا نفهم بها الدنيا والحياة . ولكن هذه الكلمات أيضاً
قد حبستنا في نطاق لا نخرج منه ، إذ صاغت لنا الفكرة وبعثت لنا
العاطفة وكيف الاثنين

ولذلك قال ويتجشثن : : حدود لفتى هي حدود عالمي ،

أنا أكلم ثلاث غايات :

الأولى : أن أتفاهم مع الآخرين بالحديث

الثانية : أن أتفاهم مع نفسي حين أخلو وأقول إني أفكر .
والحقيقة أنني أستحضر الكلمات التي تعين تفكيري وتصوغ
إحساسي

والغاية الثالثة : هي أن اللغة تعين موقفى من الناس والأشياء
والدنيا والكون . وهى هنا فلسفة وعلم وأدب وفلكيات وطبيعيات الخ .
واللغة هنا تزيد وجداني ، أى كيف أجد نفسي في كل هذه الأشياء .

أى كيف يزداد وجودى فى إحساسى وفكرى وتعقل
إن جوليان هكسلى يقول: إن تطور الإنسان قد وقف بسبب اللغة،
ويكاد يكون صادقاً

ذلك أن الزواحف حين شرع بعضها يحرب الودود فى الهواء كى
بأكل الفراش الطائر صار جلدها حول أجسامها ينبت ريشاً فصارت
طيوراً

ولكننا نحن لن نظير . لأننا بما عندنا من ثقافة (أى كلمات)
قد عرفنا كيف نظير بالحديد والنار . فالثقافة البشرية ، أى اللغة البشرية ،
قد قامت مقام التطور العضوى فى أجسامنا . فلن تكون لنا أجنحة
وكذلك لن نستطيع الإقامة فى البحار كما فعلت القياطس والسلاحف
بأنواعها . لأننا بثقافتنا الخاصة بصنع السفن قد استغنيينا عن ذلك

فالارتقاء الثقافى ، أى اللغوى ، قد عاق وسوف يعوق التطور العضوى .
ولكنى اعتقد مع ذلك أن كبر المخ فى الإنسان يعود إلى اللغة . لأن
هذا العضو احتاج إلى أن يكبر كى يحتفظ بالصور العديدة التى أوجدتها
الكلمات : فالتطور الجسمى قد أوقف ولكن التطور المخى لن يقف
من أحسن ما فى سارتر ، صاحب الوجودية ، عنايته باللغة ومواصلة
البحث فى إمكاناتها . فهو يقول إن صناعة الكاتب هى الكلمات أى
الأفكار . وهو أيضاً يقول : « أنا لا أثق بما لا يمكن التعبير عنه » .
وهو يعنى أننا ما دمنا نعجز عن التعبير فأننا نعجز عن التفكير

ولكن أحسن ما قاله سارتر عن اللغة هو هذه الكلمات التالية التى
أضعها أنا فى صيغة السؤال :

• هل نحن تتغير ثم نجر اللغة خلفنا ونغيرها ، أم أننا نحس وجداناً
 لغوياً جديداً يجعلنا نرى الدنيا على غير ما كانت عليه قبلاً فتتغير ؟ ،
 واعتقادى أن هذا هو سؤال القرن العشرين فى الفلسفة . وإجابتى
 عليه ، وهى إجابة تجريبية وقنية ، هى أن التفاعل اللغوى من المؤلفين
 العديدين يضى على الكلمات القديمة معانى جديدة ، ثم تعود هذه
 الكلمات بمعانيها الجديدة فتحدث طرزاً جديدة فى الفكر والعاطفة
 فيكون التجدد الاجتماعى أو الثقافى
 وبكلمة أخرى نحن نجر اللغة . وهى أيضاً تجربنا
 ولكن إذا سلنا بهذا فإننا نحتاج إلى أن نعالج حياتنا ومجتمعنا
 وفلسفتنا وأخلاقنا من الكلمات المريضة التى تحدث لنا طرزاً مريضة
 من الأخلاق والاجتماع والحياة والفلسفة

اللغة أعظم أدواتنا الإجتماعية

أعتقد أن أعظم ما سوف يشغل الفلاسفة في السنين القريبة القادمة هو اللغة ، وأن السكتب ستؤلف بالمثلثات عن قيمة الكلمات في الأخلاق والتوجيه الاجتماعي والتفكير المنظم

وأعتقد أيضاً أن تطورنا الذي سوف نسيطر عليه ولا نتركه للطبيعة ، سيتناول اللغة باعتبارها الوسط الإجتماعي الأول والأخطر في حياة الإنسان . وأن الوقت ليس بعيداً حين تسن الحكومات قوانين تلزم بها بعض الكلمات التي تبعث على الجريمة والزيف الأخلاق باعتبار أن هذه الكلمات هي حلة الجريمة أو الزيف

وقد التفت السيكلوجيون إلى اللغة. ولكنهم لم يستوفوا كل ما فيها من خطورة اجتماعية وذمينة وأخلاقية

وأنا هنا أؤمى. أكثر مما أعبر. وذلك كي أستوعب في إيجاز بدلا من أن أخصص في إسهاب

وأول ما أؤمى. إليه أن الأستاذ محمود تيمور ألف درامة بلغتين إحداها العربية الفصحى ، والثانية العربية العامية ، وجمعهما في مجلد واحد كما لو كانت إحداها ترجمة الأخرى

وهو بهذا العمل قد كشف عن مرض اجتماعى أصيل فى بيئتنا العربية . لأن كلمات اللغة أفكار . ونحن نكون لنسا كلمتان فان معنى هذا أن لنا فكرتين . أى أن لنا طبقتين لكل منهما أفكارها وأخلاقيها وأسلوب عيشها

وهذا دمار فى مجتمعنا . ويجب أن نحاكم المسئولين عن هذا الدمار الفكرى والأخلاقى والاجتماعى . كما يجب أن نبادر بعلاجهم والمسئولون هنا هم أولئك الذين لا يزالون يناوون عن الشعب ويربأون بالآداب أن يكون شعبياً . لأن الشعب عندهم هو العامة . وهم من الخاصة . فيجب أن نكون لهم لغة خاصة وأن يكون للشعب لغة العامة

نحن المصريون عند هؤلاء . أمتان : أمة متعلبة تتذوق الآداب والفنون ولها لغة راقية تودى التعبير عنها . وأمة أخرى جاهلة جافة لا تتذوق الآداب والفنون ويجب لذلك أن نكتب لها ، إذا كتبنا ، بلغتنا العامية الجاهلة الجافة

فأى منطلق هذا يا ناس ؟ وفى أى بلد ، غير مصر ، توجد مثل هذه الظاهرة ؟

أليس الأحرى بالآدب أن يكتب بالكلمة السهلة والأسلوب الميسر للذين يفهمهما الشعب ؟ وأليس هدف الديمقراطية فى الحكم يجب أن يتجأ به هدف الآدب فى الديمقراطية فى الآدب ؟

إن حكومتنا تسن قوانينها بلغة واحدة للشعب كله . وهى لم تر ساجدة قط لأن تترجمها إلى اللغة العامية كما فعل الأستاذ تيمور فى قصته

فلماذا لا نكتب بلغة ميسرة مفهومة للشعب كله
إننا في داء . فانسأل من هم أصل الداء، ولنحنا كمهم . ثم يكون الدواء
جاء في مجلة التربية الحديثة، التي تصدرها الجامعة الأمريكية بالقاهرة
هذه الكلمات المنيرة :

« أول هذه التطورات هو التحول من اعتبار النفس البشرية مخلوقاً
مستقلاً منفصلاً منعزلاً، إلى اعتباره كائناً اجتماعياً قد كونه صلاته
الاجتماعية وخصته بهذه الوظيفة . والثاني هو التحول من اعتباره كائناً
ثابتاً تام التكوين إلى اعتباره كائناً ينمو ويتحرك ويتفاعل ويتطور .
والثالث هو التحول من النظرة الساذجة التي تعتبر اللغة وسيلة مستقلة
لنقل المعاني إلى اعتباره وظيفة من وظائف التكوين والتفاعل الاجتماعي .
ولو كنت وزيراً للعارف لأصدرت « أمراً يومياً ، لجميع المعلمين
في مصر به هذه الكلمات العظيمة التي كتبها هذه المجلة :
١ - ليس الإنسان مستقلاً كما يقول سارتر وإنما هو مكون ومؤلف
بصلاته الاجتماعية

٢ - الإنسان ليس كائناً ثابتاً وإنما هو متطور متفاعل
٣ - ليست اللغة لنقل المعاني فقط وإنما هي أيضاً للتفاعل الاجتماعي

كما نستعمل نحن الكلمات وتسلط عليها كذلك الكلمات تستعملنا
وتسلط علينا . بل هي تستعملنا أكثر مما تستعملها نحن
نحن لا نفكر بالأفكار وإنما نفكر بالكلمات
ونحن لا نخترع كلمات اللغة بل نرثها من مجتمعنا

ونحن مقيدون في تفكيرنا ، وموجهون به ، بما تحمل هذه الكلمات
من المعاني

وصحيح أننا أحيانا نخترع الكلمات ، كما هو الشأن في العلوم والفنون،
ولكن هذا قليل جداً بالمقارنة إلى ما نرت . ثم نحن نختزع الكلمات كي
نعين بها ونوضح بها المعاني المضطربة في أذهاننا
لأن الفكرة تبقى مضطربة غامضة مشبهة حتى نضوعها في كلمة ،
فتنعين لها حدود ويتضح لها معنى

ولن يستطيع أحد أن يفكر بلا كلمات إلا إذا استعان على ذلك
بعلامات الخرس ... ولذلك يسمى علم اللغة الجديد علم العلامات أي
السيماية ، . لأن كلمة سيما تعني علامة

لقد كبرت عقولنا باللغة .. بالكلمات
والفرق الأساسي بيننا وبين الشمبزي ، ليس أن نحن أكبر من نخه ،
بل لأننا نطق ولنا لغة . وهو أخرس ليست له لغة
بل أعتقد أن نحن أكبر من أخاخ الشمبزي وغيره من الحيوانات
لأن لنا لغة وليست لها لغة

المنخ البشري كبير نتيجة اللغة . وليس العكس
فكما أن عنق الجمل طالت كفى يصل إلى العشب كذلك كبر نحن كي
يخترع معاني الكلمات . إذ ما الذي كان يبعث على كبر المنخ في الإنسان
سوى حاجته إلى استيعاب وتسجيل وتقليب المعاني ؟
الوظيفة تسبق العضو

وظيفة التعبير ، اللغة ، أوجدت المنخ

وتطورنا القادم سوف يكون لغوياً مخياً ، أى أن المخ سيكبر
اللغة أعظم أدواتنا الاجتماعية . وهى أخطر فى حياتنا من جميع
المؤسسات الأخرى ، مثل العائلة أو الدولة أو القوة المادية أو أى شيء
آخر .

بل ماذا أقول ؟

ان جميع هذه الاشياء ، العائلة والدولة والقوة المادية ، هى ثمرة اللغة
لقد اخترعنا كلمات العائلة والبرلمان والمجتمع كى نوجد الأفكار
التي تدل عليها

وما يمانيه الشعب من قلق اجتماعى منبه بشأن الطلاق والزواج وتعدد
الزوجات وتربية الأطفال إنما يرجع إلى أن كلمة « عائلة » قد اندست
فى وجدانه وصارت جزءاً من كيانه النفسى . وهى من مخترعاتنا . ولذلك
لا تجد لها أصلاً فى أى معجم عربى
ولكن مع القيمة العظمى للغة ، أى للكلمات ، فالتنا يجب أن ننتبه
إلى شيئين هما عيان عقليان :

١ - الأول أننا أحياناً ، بل كثيراً ، نسمى الشيء ونخترع الكلمة
لالتدل على حقيقة هذا الشيء . وإنما لتدل على احساسنا نحن نحوه وما
تكسبه من هذا الشيء من قيمة فيما يتعلق بحياتنا . ولهذا السبب كثيراً ما
نتعرف إلى الأشياء ، بالعقيدة وليس بالمعرفة . فالبايض طهارة ، والبومة
شؤم . وموجات الضوء ألوان ... الخ

٢ - والثانى أننا حين نتأمل الأشياء فى هذه الدنيا أو هذا الكون ،

إنما نفعل ذلك ونحن نحمد هذه الأشياء أى نقفها عن تدفقها . وبهذا للتجديد
تتغير حقيقتها فى عقولنا

ولا يمكن أن تدل الكلمات ، أى الأسماء ، على أشياء إلا بعد تجديد
هذه الأشياء

ولذلك نحن لانفهم الأشياء على حقيقتها ، أى على تدفقها وتطورها ،
ولكننا ننهمها ثابتة مجمدة على غير حقيقتها

وعلم السماء هو العلم الجديد الذى يحاول الكشف عن الأخطاء
التي تقع فيها لأن الكلمات لاتنقل إلينا الصورة الحقيقية للأشياء
كل شيء فى هذا الكون فى تدفق

وكي تكون اللغة خادمة أمينة للمجتمع والابنسان يجب أن تكون
هى أيضاً فى تدفق أى فى تطور

للكاتب الفرنسى لافارج رسالة عنوائها : اللغة والثورة ، وصف
فيها التطورات التي سرت فى اللغة الفرنسية فيما بين ١٧٨٩ و ١٧٩٤
أيام الثورة

ذلك أنه اخترعت كلمات جديدة لتأدية المعانى الجديدة فى الثورة
الفرنسية الكبرى . كما أن كلمات قديمة كانت تعبر عن النظام الاقطاعى
قد أميتت

وفى الثورات تظهر الكلمات الجديدة على قدر التطورات
واللغة هى أداة الانتاج الذهنى والتغيرات الاجتماعية
اللغة هى الوجدان الفكرى الامة ، ونحن نبقى فى ذهول فكرى إلى

أن يعين أفكارنا بالكلمات

ألا تعرف أنه عندما يضطرب أحد الشبان وتختلط عليه احساساته وأفكاره ويجد الشبهات والخاوف نطلب اليه أن يعين كل ذلك باللغة ؟
 أى نطلب اليه أن يكتب ويوضح بالكلمات جميع احساساته وأفكاره .
 وقد يكون في عمله هذا كل الدواء الذى يحتاجه أو معظمه
 كذلك نحن فى اضطراب الثورات نحتاج إلى من يعين لنا ، باللغة ،
 اتجاهاتنا ويقنع عنا ضباب المخاوف والاشتباكات
 أين لافلوج المصرى الذى يؤلف لنا رسالة عن « اللغة والثورة » ؟
 ماذا هناك هناك تغير وتطور قد أحدثته الثورة فيجب أن تكون هناك
 كلمات جديدة توجه وتسجل وتثير

* * *

فى الخمسين أو الستين سنة الماضية اخترعنا كلمات غيرت مجتمعا
 وأخلاقنا

وقد أشرت إلى كلمة «عائلة» التى نقلناها معنى أوريبا يقلقل مجتمعا
 ويجعلنا نتحدث ونطالب بالإصلاح فى شؤون الزواج والطلاق والنفقة
 وتعدد الزوجات وحضانة الأولاد ... الخ

أنها كلمة تقلقنا قلقلًا مقدسًا

وإلى جنب هذه الكلمة اخترعنا كلمات : مجتمع ، وصحافة ، وتطور ،
 وحكومة ، ونقابة ، وثقافة ، واستقلال ، وبرلمان ، وعلم ، وشخصية ،
 ووجدان ... الخ

وقد سبق لقاسم أمين أن أوجد كلمات «سفور» و «حرية المرأة»
قصارت الكلمات حقائق

وبعض هذه الكلمات عربي قديم ولكننا أ كسبناه معاني جديدة
وبعضها مخترع

وقد أ كسبتنا هذه الكلمات حياة ذهنية جديدة وأخلاقاً جديدة.
أى أعطتنا «وجهة نظر» جديدة للكون حتى لا كاد أقول إنها زادت
ذكائنا

ومهمتنا نحن المفكرين والادباء والعلماء اختراع كلمات جديدة
تحمل شحنات اجتماعية عن النهضة والتمدن والفكر تجعل شعبنا يحيا
الحياة العصرية ويكتسب «وجهة نظر» جديدة للانسان والمجتمع
والكون

الكتب العظيمة التي تربينا

لا ينقص عدد الخطابات التي وصلت إلى منذ أقل من عام بشأن الكتب التي يجب أن يقرأها شبابنا ويستنيروا بها عن مائة خطاب وجميع هؤلاء المراسلين شبان . فانهم جميعاً يصفون تعليمهم السابق، ثم يبرزون ما يحسون به من نقص ، ويسألون عن العلاج . وهم جميعاً يذكرون أعمارهم كأنهم يرجون أن يهتدوا إلى برنامج ثقافي للسنين القادمة من حياتهم

وهذه الحال تدل على زعزعة نفسية قد أحدثت قلقاً وتساؤلاً واستطلاعاً . ومصدر هذه الزعزعة هو هذا التناقض القائم بين أسلوب العيش الذي تتبعه في مجتمعنا وبين ما تعلنه وأخذنا به من عادات ذهنية قد أورثتنا أياها ثقافات كثيراً ما تحدث لنا الحرج والبليلة

ومن هنا هذه الرغبة الحادة في بعض الشبان حين يسألون : ماذا نقرأ ؟ أي كيف نستقر ونهدأ ؟ كيف نجعل عاداتنا الذهنية توائم أسلوب عيشنا ؟

وفي كل انسان سليم النفس طاقة تطويرية . وهى تحتاج إلى الغذاء .
المنظم بالكتب العظيمة والاختبارات العالية ومباشرة الطبيعة بالسؤال
الحر والجواب الحر والاستعداد للتغير والارتقاء .
ولكن النفس البشرية كثيراً ماتمرض فتجمد وتجمد التطور . أى
تجمد الحياة وتلتحر

وحال شبابنا فى مصر ، فى زرعتههم وبلبلتهم ، لا تختلف كثيراً
عن حال الشباب فى أمريكا . وإن كان المستوى يختلف
فى مصر نجد حضارة غربية تطويرية تكسح أو تسود حضارتنا
الموروثة أفكاراً وأشياء ، كما نجد معارف تصطدم بعقائد . فتبليبل .
وأحياناً نحتفى من هذا الاكتساح أو السيادة بأن نختصم الغربيين
فندعو إلى القناعة ونكسح فى بحارنا أو قواقعنا . أو نكبر من شأن
حضارتنا ، وهى الفلاحة ، فنقول إنها روحية . أو نقول إننا شرقيون
وهم غربيون . وكأننا قد فصلنا النوع البشرى قسمين

وفى أمريكا يجد الشباب مشكلة قريبة فى موقفها من مشكلتنا ،
ولسكنها لا تطابقها . فهناك يبدو التناقض واضحاً بين العيش والفكر .
وقد لا يدرك القارىء المصرى أن الأمريكيين يعيشون ، من حيث المواد
والإنتاج ، فى القرن الحادى والعشرين . فإن الأمريكى ، فى المتوسط ،
يتسلط على قوة لا تنقص عن خمسين أو ستين حصاناً يوجهها للإنتاج .
المادى فى بناء منزل أو طائرة أو سيارة أو إنتاج زراعى أو صناعى
ولكنه من حيث الثقافة لا يختلف عن غيره فى أفطار العالم الأخرى .

ومن هنا هذا التناقض الذى يحدث عنده البلبلة والزعزعة والتساؤل :
ماذا أقرأ كي أفهم وأهدأ ؟ أى ماذا أفعل كي أجعل أفكارى تلائم
الحضارة التى أعيش فيها ؟

ومن هنا أيضاً هذا الاهتمام الذى يقارب الهم باختيار الكتب
فى الولايات المتحدة . فقبل أكثر من ستين سنة أوصى الدكتور اليوت
بطبع مائة مجلد زعم أنها تكفل للإنسان العصرى بأن يكون مثقفاً ،
وبعض هذه المجلدات يحتوى على عدة كتب ،

وقبل نحو خمس عشرة سنة نبعث فى جامعة شيكاغو ظاهرة ثقافية
جديدة فى شخص الأستاذ هتشنس ، فإنه جعل « الكتاب » أساس
المنافسة الحرة بغية التثقيف العالى . ونجح فى ذلك نجاحاً كبيراً
حل الجامعات الأخرى على اتباع خطته . ووضع هو وأعوانه أسماء
لنحو مائة كتاب قيل إنها تكفل للقارىء أن يكون إنساناً راشداً ناضج
الذهن ، ولكن خطة هتشنس كانت تحتوى نذارة ونبرة

فأما النذارة فهى قيمة الكتاب فى تخريج الرجل المثقف ، وأن
الجامعات كانت قد أهملت هذا العامل الأول فى التربية الذهنية ، فيجب
أن تنو إلى

وأما النبرة فهى كيف ندرس الكتاب ؟

ومن هنا كانت المناقشات الحرة بين جماعة من الطلبة يحاولون
استخراج العبرة والدلالة من الكتب فى الحضارة العصرية ، وأسلوب
البحث ، ونظام المجتمع ، واستقلال الذهن وحرية الضمير

ولكن الحضارة الأمريكية تتغير في موادها وإنتاجها ، كيفاً وكما ،
بسرعة تحتاج الى إعادة النظر في النظرة والنبرة مرة على الأقل كل
عشر سنوات

والحق أن الأمراض النفسية كثيرة في الولايات المتحدة . والذي
لا شك فيه أن بعض هذه الكثرة تعزى الى التناقض بين الثقافة ، أى
ما تفكر فيه ، وبين الحضارة ، أى ما تعيش عليه من عائلة ومجتمع ومصنع
ومزرعة ومكتب

وهذا الاختلاف الذى يكاد لا ينقطع بين الأسس واليوم في طرق
العيش يحمل الأمريكي على أن يبحث عن مراس جديدة غير مراسيه
التقليدية ، وهو يشدها في « الكتاب »

ماذا يجب أن يقرأ ؟ وأن يعرف ؟ وأن يعتقد ؟
وأشوأ ما يلاقه الشاب الأمريكي أنه يجد أن عقائده تناقض
معارفه . وأشوأ من هذا أيضاً أن يقول المشرفون على ثقافته الباحثون
عن المراسى ، « أن العقيدة أرواح ولكن القلق أشرف » كما هي كلمات
تراند راسل

أليس هناك ، في الولايات المتحدة ، من الأسرة لمرضى النفس
في المستشفيات ما يزيد على الأسرة لمرضى الجسم ؟
الشك ، القلق ، الهم ، النيوروز ..

ليس هناك عقائد يرتاحون إليها
وإذن أين « الكتاب » الذى يقرأه الشاب حتى لا يحتاج الى
سرير في مستشفى الأمراض العقلية ؟ أين الكتاب الذى يصالح بين
عقله وقلبه ؟

وهنا شب علينا مشروع جديد ، هو محاولة جديدة لإيجاد الطمأنينة
الذهنية باختيار الكتب

ويتقدم إلينا هتشنس الذى كان قد بعث الكتاب فى جامعة شيكاغو
وتتقدم إلينا هيئة التحرير لأعظم كتاب ظهر فى العالم وهو « الموسوعة
البريطانية » التى تتوى المعارف البشرية ، ويعاونهم جميعهم هيئات وأفراد
بنية تعيين الكتب التى يجب أن نقرأها كي نطمئن
ماذا أقول ؟

كى نطمئن أم كى نقلق ؟
هل يرضى الرجل المثقف أن ينزل عن قلته الذى يثير استطلاعاه ؟
واجتمع هؤلاء جميعا إلى السنة الماضية واختاروا ٥٤ مجلداً تحوى
٧٤ مؤلفا ، لأن بعض المجلدات يحوى كتابين أو ربما ثلاثة كتب
وطبعت هذه الكتب طبعا ليس فائرا ولكن متقن ، لأن الثقافة
ليست ترفا وإنما هى ضرورة . ويبلغ ثمن هذه المجموعة ١٢٠ جنها
هل هذا كثير ؟

لأننا نقدر سعادتنا بالدخل المالى . فلماذا لا نزيد عليه دخلا آخر
هو الدخل الذهبى ؟

ارتقاء أذهاننا بالقلق أحيانا . وبالطمأنينة أحيانا أخرى . وبزيادة
الوجدان والتعقل . وبترقية شخصيتنا حتى نحس أننا فى تطور وارتقاء
واستقلال ونضج

لا . ليس المبلغ كبيراً على القادرين . ولو كانت هناك حكومات
ديمقراطية حقاً لاتاحت للعاجزين اقتناء هذه الكتب بمشر هذا الثمن
أو بلا ثمن

إن ثمن « الموسوعة البريطانية » سبعون جنها . وقد اقترحت في
كلمة سابقة ترجمتها إلى لغتنا حتى تحدث ههنا أصيلة وحتى يستحيل
« الشرق العربي » ، إلى « الغرب العربي » . . ولكن أحداً لم يقدر اقتراحى
هذا

ولنعد إلى المشروع الجديد
قلت إن الذى يبعث على القلق عند الشاب الأمريكى هو التناقض
بين ما يفكر فيه ، أى ما اكتسب من ثقافة ، وبين ما يعيش به ، أى
ما يكتسفه ويلبسه من حضارة
ولذلك فإن المشروع الجديد يهدف إلى التوفيق بين الثقافة والحضارة
فكيف يكون هذا ؟

هذه الحضارة الأمريكية تقوم على العلم والصناعة
وإذن نحن نحمد أن من هذه المجموعة ٢٠ مجلداً فقط فى الأدب
و ٥٢ مجلداً فى العلم
وهناك مجلدان اثنان للفهرست . ولكن أى فهرست ؟
فهرست الأفكار البشرية . العائلة . الحرب . الحب . المجتمع . الاستعمار
الطب . الكيمياء ... الخ

والآن ما هو موقف شبابنا من كل هذا الذى ذكرنا ؟
لأنهم أيضاً فى زعزعة وبلبله وقلق . وهم يحتاجون إلى أن نذكرهم

المؤلفات التي ينبغي أن يقرأوها كي يجدوا التوفيق الذي يهديهم، والمعرفة التي تغلق وتطمئن، والنظرة الفلسفية إلى الكون الذي عينه لنا أينشتاين، والنظرة البيولوجية التي وجهنا إليها داروين، والعلم الذي يثير والفلسفة التي تبصر

أين هي المؤلفات التي ترشدكم إلى كل ذلك في اللغة العربية؟ أين هو غذاء الطاقة التطورية في نفوسهم؟ وجوابي أني لا أعرفه. لا أعرف الكتب العربية العظيمة التي يمكن أن ترشد شبابنا إلى الحياة الصالحة التي يسعدون بها أنفسهم ويسعدون بها غيرهم هل يمكن أحدا أن يدلني عليها؟

كيف تتعلم العبقريّة

يكره عامة الناس التعليقات الطبيعية البسيطة ، ويحبون أن يروا
معجزة في رجل جاهل يشفى المرض أو رجل أبله يسيل لعابه يهذى
بكلمات ويتكهن عن الحظوظ

وقبل أكثر من عشرين سنة كان يحول حول مقاهى القاهرة صبي
أو شاب يضرب سبعة أرقام في سبعة أرقام مثلها ويخرج الحاصل وهو
واقف بلا حاجة إلى قلم وورق وكان عامة الناس يجحدون فيه معجزة
ويصفونه بأنه عبقري

إن العبقريّة عند هؤلاء معجزة. وكان الشعوب كلها من تراب في
عموميتها ولكنها من ذهب في قلة من الرجال الأفذاذ ، فهم يفهمون
أكثر ويعرفون أكثر من عامة الشعب متعلية وجاهلية

وتعلق الناس بالمعجزات هو علة الدعوى بأن المؤلف أو المخترع
أو المكشف « عبقري » ، يخالف سائر الناس ، وعلة الدعوى أيضاً بأن
الأبله يشفى المرضى أو يتكهن بالمستقبل ، وهى فى أساسها رغبة فيما
مخالف المألوف

بل لقد ألفت الكتب في ماهية العبقريّة وتمييزها من النبوغ .
والقارىء لهذه الكتب ، إذا كان على شيء من الذكاء ، يحس بلاغة
أو غفلة هؤلاء المؤلفين . فان لومبروز صاحب الرأى السخيف بشأن
المجرمين « المولودين » الذين ورثوا الاجرام أو الميل الى الاجرام هو
نفسه الذى ألف : « رجل العبقريّة » . وجعله أيضاً وارثاً لهذه القوة
الذهنية التى يعتقد عامة الناس أنها معجزة وأنها قة لن يمكنهم أن يصلوا
إليها مهما جاهدوا واجتهدوا

وقد اتفينا من لومبروز بشأن الاجرام وعرفنا ، بل أيقنا ، أن
الوسط الاجتماعى أو الاقتصادى السىء هو الذى يهوى للجريمة . ولكننا
لم نصل بعد الى القول بأن الوسط الاجتماعى أيضاً هو علة العبقريّة . وكما
قستطيع أن نعلم الصبيان كيف ينشأون مجرمين نشالين مثلاً نستطيع
كذلك أن نعلمهم كيف ينشأون أذكىاء عبارة

ألسنا نرى رياضيين يقومون بالمعجزات فى العدو والوثب
والسباحة وحمل الاثقال والمصارعة ؟ فهل أحد منا يعزو قوتهم هذه الى
الوراثة ؟ أى الى أنهم ولدوا أقوياء ؟

الجواب لا . لأننا نعرف أنهم دربوا حتى وصلوا الى تفوقهم هذا .
وكذلك الشأن فى العبقريّة . فإنها نتجاً فى وسط معين وتحتاج الى تربية
وتدريب بحيث يستطيع أن يتحمل العبقريّة ذهنياً ما يستطيع أن يتحمل
الرياضى جسياً

إذا كانت العبقريّة تورث فإننا يجب أن نعلم أيضاً بأن للذكاء

يورث ، وبأن هناك شعباً تمتاز بالذكاء وأخرى لا تمتاز به . وعلى هذا الأساس يجب أن نبرر الاستعمار إذ هو ، في منطق دعاة الوراثة ، حكم أمة ممتازة بالذكاء لأمة لا تمتاز به . وللأولى إذن حق استغلال الثانية . أليس هي منازة ؟

وإذا كانت أسرة تمتاز بالذكاء وأخرى لا تمتاز به فمن حق الأولى أن تستغل الثانية . وإذن عندنا ما يبرر الاستعمار ثم الاستغلال ثم هناك بيض وسود . والبيض أذكىء والسود مغفلون . وإذن لا يجوز لأحد أن يقول بالمساواة بين الاثنين . هذا حكم الوراثة

وأنا أسلم بأن فرداً قد يمتاز من آخر بمقدار من الذكاء الموروث . ولكن هذا المقدار ليس علة العبقرية من طرف أو علة الغفلة من طرف آخر . وإنما السبب الأساسي ، بل الوحيد ، للذكاء الخارق ، وللطبيعة المفرطة ، وللإختراع والاكتشاف ، هو الوسط وليس الوراثة . كما أن السبب الأساسي للنبوغ في الجريمة وفي الرياضة هو الوسط ، أي البيئة التي تحمل على الاهتمام بشأن معين فيكون التفكير فيه والتدريب عليه إلى درجات التفوق

قبل نحو مائة سنة ألف جالتون كتابه « العبقرية الوراثية » . وقد زعم فيه أن الذين حكموا العالم واكتشفوا واخترعوا وقاتلوا ونجحوا في المارك ، إنما ترجع عبقريتهم إلى الوراثة . وبرهان ذلك عنده أننا نجد أبنا. عمومهم وحثولهم عباقرة مثلهم مما يدل على أن للعبقرية « دماء » تجري في عروق أفراد الأسرة ولم أحتج إلى كثير من التفكير كي أسأل : ولماذا لا تقول أن

واحداً منهم وصل إلى القمة ثم صار يساعد الآخرين بالمحابة أو بالترية على الوصول أيضاً مثله ؟

السنا نعرف نحن في مصر كيف أن أبناء العمومة والحثولة ، من قرب منهم ومن بعد ، كانوا يصلون إلى القمم في العهود الماضية عندما كان واحد منهم وزيراً أو وكيل وزارة أو نحو ذلك ؟

وهل يمكن أن نقول إن تفوق العنصر التركي في المناصب العالية العامة قرابة ١٥٠ سنة في مصر على العنصر المصري برهان على عبقرية تركية ؟

الجواب لا ، واذن ما هو السبب ؟

السبب هو البيئة . أى الوسط

وقبل نحو ستين سنة ألف رجل انكليزى ، كان قد تأمل ، كتاباً عن تفوق الجرمان بالوراثة على سائر شعوب العالم . وهو هراء ضخيم ومثل هذا الهراء الضخم نسمعه من الكتاب الجهلة عن تفوق الرجال على المرأة في الذكاء . وقد يضحك القارىء حين يعرف أن بعض البراهين على هذا التفوق أن الرجل يخترع ويكتشف ، أما المرأة فلا وكيف تخترع المرأة وتكتشف وهي تطبخ البامية والبطاطس وتمسح البيت كل يوم وتغسل الأطفال كل ساعة . هل هذه الأعمال تبعث على الاختراع والاكتشاف ؟

إن الرجل يكتشف ويخترع لأنه يحيا في بيئة الصناعة والتجارة والعلوم والفن والهندسة والطب . فالجمال ، أى الوسط ، يبعث على الاختراع والاكتشاف

بل اليك يغير الطبيعة الموروثة

فانه يحدث في الهند أن تعطف ذئبة طفلة بشرية . ثم بدلا من أن تأكلها تنمى بها ثم تصير لها أما رحيمة . وتنشأ الطفلة مع الذئاب ، فلا تمشي على قدميها وإنما على يديها وقدميها مثل الذئبة . وتستيقظ عند الغروب ، ويتبعها ساعية تسرق الفرائخ وتعود طول الليل ، برأيتها نيتة بأمانها وتنام في النهار

ومنه الحوادث مؤكدة . وقد قرأنا عنها كثيرا ولا مجال للشك فيها فالرسول هنا ، يوسط الذئاب ، جعل الطبيعة البشرية طبيعة ذئبية .

أى غيرها

هناك أوساط بشرية تهمل للتعهد الذئبي ، كالوسط الزراعى مثلا ، فان ميدان الاكتشاف والاختراع بل ميدان التفكير فيه يكاد يكون معدوماً ، ولذلك تجد التسليم التام للقدر والحظ

أذكر أنى سألت أحد الفلاحين عن علة وفاة أحد أقربائه . فضحك منى وقال يهزأ بى : كيف مات ؟ لماذا مات ؟ مات . مكتوب عليه وعلينا الموت . مقدر علينا

ومثل هذا الموقف من القدر لا يدعو إلى بحث الموت ، أى لا يدعو إلى الاكتشاف

ولكن ساكن المدينة يتذكى ويسأل ويستفهم ولا يسلم للقدر الوسط الزراعى أوجد النظام الاقطاعى الجامد ، والتسليم للقدر ، وكرهه التغير أو التطور ، واحترام التقاليد ، وسائر المجموعة من الاخلاق الاقطاعية التى لا يزال أكثرها ، بحكم الوسط الزراعى ، فاشيا فى بلادنا

ولكن الوسط المدنى ، وسط المدينة والمصنع والمتجر والجريدة اليومية والمناظر السينمائية والكنت ونحوها ، هذا الوسط جعل ساكن المدينة أذكى من ساكن الريف . أو بالأحرى زاد ذكاءه حدة وبقظة فى حين جعل الوسط الزراعى ذكاء الفلاح فى نوم وغفلة . ومن هنا تفوق أوروبا الصناعية على أقطار الشرق الزراعية وهناك ظروف تزيد ذكاءنا حدة . وتوقفنا وتقلقنا ، فنسأل ونستفهم ، ثم نفهم

فالأم التى لا تبدى ذكاء بشأن أى موضوع تفهم من حركات طفلها وإيماءاته الصغيرة ما لا نفهمه نحن . لأنها قلقة عليه مهمة به . فذكاءها هنا يقظ بالقلق والاهتمام

وبكلمة أخرى تقول إن الدرس الأول فى كيف نتعلم العبقريّة .

هو الاهتمام

الاهتمام البالغ الذى يشبه الهوس هو الخاصة الأولى للعبقريّة وكثير من القصص الطريفة عن المخترعين والمكتشفين تدل على هذا الاهتمام الذى يفر النفس والعقل وينسى العبرى مواعيد غدائه أو أسماء أصدقائه ، بل يكاد ينسى كل شيء إلا موضوع دراسته وتفكيره ، حتى لتعزو اليه الغفلة أو البلاهة

وهذا الاهتمام يشبه هو صفة ذلك الصبي أو الشاب الذى كان يضرب ٧ أرقام على ٧ بلا حاجة الى ورق وقلم . فانه كان يجهل كل شيء فى الدنيا الا عملية الضرب هذه التى أصبح عبثياً فيها لاهتمامه بها ، هذا الاهتمام الذى استغرق كل مجهود عقله ونفسه حتى لم يعد يبذل أى مجهود بشأن آخر فى حياته

وهناك بالطبع ظروف تزيد اهتمامنا أو تنقصه. ففي أيام الأزمات حين نخشى الحرب مثلاً يتضاعف بيع الصحف. أى أن الناس يقرأون أكثر مما كانوا قبل الأزمة. والقراءة تفتق ذكاهم وتجعلهم يفكرون في المستقبل الخاص لهم والعام للشعب والعالم وإذا شئت أيها الأب أن تزيد ذكاء ابنك حدة فاملاً دنياه الصغيرة بالاهتمامات التي تشغله واجعل له مصلحة اجتماعية أو مالية في هذا الاهتمام، وعليه العديد من الهوايات التي تغمر شخصيته وتحمله على التفكير والعمل

* * *

إن معظم الاختراعات كانت هوايات تشغل فراغ المخترعين فقط. ولكنها كانت تجد منهم الاهتمام الذي يحرك الذكاء ويكاد يزيده والريفيون لا يفكرون في عمق لأن وسطهم لا يدعو إلى الاهتمام والمرأة في البيت لا تفكر في عمق لأن وسطها لا يدعو إلى الاهتمام والريفي يفكر في عمق عندما ينتقل إلى المدينة حين تحرك أشيائها المختلفة ذكاه، فيهم

والمرأة تفكر حين تختلط بالمجتمع وتعمل وتنتج، وتهم الدرس الثاني في العبرة أو الذكاء العالي أن نتعلم الحضنة أى كما تحضن الدجاجة وترقد على بيضها حتى يتفقا وتخرج الفراخ، كذلك نحتاج نحن إلى أن نرقد على الفكرة التي تخطر لنا ونتركها أياماً ونعود إليها من وقت لآخر. نتركها للعقل الباطن كي يعمل بخياله

وأحلامه فيها . ثم نعود إليها كي نسلط عليها العقل الواعي . أى ندرسها بعقلين

وأحياناً يؤدي المرض مثل هذه الحضانة . لأن المريض في سريره يفكر كثيراً ويحلم كثيراً . وهو يعود من وقت لآخر لأفكاره يستأنفها ولكنه لا يجتزمها ، وإنما يعاودها بالتنقيح
وأحياناً يؤدي الجرح النفسى إلى القلق ، والتفكير ، غدة الذكاء ، لأن النفس تبقى مهمومة قلقه

ومن هنا القيمة العليا التي نجدها أحياناً ، وأحياناً فقط ، لبعض الأمراض التي تقلقنا أو تلزمننا السرير
الفكرة الحسنة لن نفرخ إلا كما نفرخ البيضة . كلناهما تحتاج إلى أن تحضن أياً ما أو أسابع

الدرس الثالث في « كيف نتعلم العبقريّة » هو أن نتعود الثقافة
أى نجعل الثقافة عادة نشأ عليها ونحن أطفال في البيت . وهذا بالطبع يجب أن يضطلع الآباء به . كما يجب أن تكون هناك كتب مغرية نجها ونقبل على موضوعاتها منذ الطفولة فننشأ مستطلعين متسائلين مستقسمين

وميدان العلم هنا أوسع من ميدان الأدب . فإذا كانت كتب الأطفال عن هذه الدنيا تبحث وتشرح موضوعاتها العلمية في الاختراع والاكتشاف فإن الصبي ينمو نمواً عضوياً نحو الشباب ثم نحو الرجولة المكتملة يدرس ولا يطالع ويبحث ولا يسلم ويؤثر من بالمنطق السيكلوجى العلمى ولا يسلم بالعقائد الموروثة

وكثير من عاداتنا ونعني في الأربعين أو السبعين من العمر تعود
إلى أننا تعودناها أيام الشباب أو الصبا . فإذا كنا نلعب الورق
أو نأكل اللب أو نسرى عن همومنا بالسجائر أيام صبانا أو شباننا
عما لا شك فيه أننا سنستمر على هذه العادات حين نبلغ الستين أو السبعين
من العمر .

وإذا كنا قد تعودنا الدراسة والاستطلاع فإن عاداتنا ستبقى
بشأنهما إلى أن نموت ولو بلغنا المائة من العمر
خلاصة القول أن العبقريّة لا تورث وإنما نحن نتعود ونشرب
عليها ونحققها بظروف وبيئات معينة : أولها الإهتمام ، وثانيها الحصانة ،
وثالثها العادة . فانظر أين مكانك من كل هذا ؟

الإيمان بالأرواح مرض

الإيمان بالأرواح برهان على عقدة نفسية تحتاج إلى العلاج
السيكولوجي . وأذكر أني دعيت قبل سنوات في الاسكندرية إلى بيت
أحد الموظفين لرؤية الأرواح التي شرعت منذ أشهر تكسر أطباق
المائدة وأكواب الشراب وتلقى بالآواني النحاسية على بلاط المطبخ
وذهبت فوجدت شظايا الأطباق ، بل وجدت زهرية عظيمة لا يقل
ثمنها عن سبعين جنيهاً وهي محطمة قد تناثرت أجزاءها
وقد مات رب هذا البيت ، وكذلك ربه ، ولذلك أستطيع أن
أفسر هذا التكسير في الآتي

ذلك أننا حين نكظم غيظنا نجد أننا نفجر في يقظتنا فنتناول
أقرب الأشياء إلينا فنقذف به ولا نبالي أن ينكسر ، وكلنا يعذر هذا
الكظم ويعمل على مواساته وتهديته
وإلى هنا لا نجد شيئاً غريباً

ولكن يحدث كثيراً أننا نكظم الغيظ ثم نضغط أنفسنا خشية النقد
أو الضرر الذي يعود علينا إذا أفرجنا عما في صدورنا بالسب أو الضرب

أو الكسر. وعندئذ يمكن النيط. فإذا استولى علينا النوم جاءت الأحلام
لتفريج هذا النيط المكثوم. فنحلم بأننا فنضرب خصمنا أو أننا نراه
في الطين والرجل ملوثاً يمشى في هوان وذلة. وهذا الحلم يربحنا بعض
الشيء.

ولكن هناك من الناس من يحلمون فينهضون ويمشون ويؤدون
أعمالاً على غير وجدان. أي أنهم يفعلون كل ذلك وهم في استغراق النوم.
فإذا كان هناك غيظ مكتوم فإن هذا المنيط قد ينهض في نومه ويكسر
آنية البيت، يفعل كل ذلك وهو نائم فإذا استيقظ لم يذكر شيئاً
وفي الصباح يقول سكان البيت أن الأرواح قد حطمت الآنية
أذكر مثلاً الزوجة التي تكره زوجها وتريد الطلاق ولكنها تجد
أن المجتمع لا يقربها على ذلك، فهي مغيرة كاطمة. وهي تحلم مرة بأنها
انفصلت من زوجها، وتحلم مرة أخرى بأنها تزوجت غيره وهناك
بزواجها. وتحلم مرة ثالثة هذا الحلم الذي يحركها فتنهض وتحطم الأثاث،
وهو أثاث البيت الذي تكرهه، ثم تعود إلى فراشها وقد هدأت نفسها
ونسيت كل شيء.

فنحن هنا إزاء عقدة نفعية أدت إلى بعض التدمير المنزلي. وقد
شهدت أنا بالإسكندرية، كما قلت، هذه العقدة التي ولت فصولها حين
انتهت بزواج جديد وانتهى بذلك كسر الأطباق
وهذا الذي يقال عن الأرواح التي تشفي الأمراض لا يختلف
كثيراً عما ذكرت. فإن المريض كاطم. وأما كاطم يحدث لنا، إن لم

تفرج عنه ، يندس في النفس ويكن . والاحلام تفرج عنه بعض
الشيء . ولكن المريض يلجأ إلى العقيدة التي يجد فيها أحياناً مينا
السلام . ونعني أية عقيدة

فإن الذى يشكو الصداع من ارتفاع الضغط فى الدم قد يؤمن بأن
الترمس هو دوائه الناجع . وهو يأكل بضع حبات منه كل مساء أو
كل صباح

والذى يشكو المرض السكرى قد يؤمن بأن شراب الخروب هو
أنجع دواء . وهو يملأ البيت بالخروب

والذى يشكو الأرق قد يؤمن بأن رائحة النعناع تجلب إليه النوم
والعجيب فى كل ذلك أن المرضى يجدون بعض الراحة فى كل هذه
«الأدوية» . وذلك لأنهم يرتاحون إلى عقيدتهم . والراحة النفسية
تؤدى إلى شىء من الراحة الجسمية . بل تؤدى إلى تخفيف الآلام
والتجاء المرضى إلى الأرواح هو عقيدة تخفف بعض الآلام . لأن
المريض ما دام يؤمن بأنه سيشفى ويوقن بأن الشفاء مؤكد فإنه يشفى
إذا كان مرضه نفسياً . ويشفى شفاء تاماً . أما إذا كان مرضه جسمى
فإنه يجد الراحة النفسية التى تزيل آلام مرضه أو تخففها . ولكنها لن
تزيل المرض

وأخيراً هناك ما يسمى «العمى السيكولوجى» وهو أن يكون
أماى شىء أو إنسان لا أحب أن أراها . وعندئذ لا أراها . كما أن
هناك ما يسمى «الصمم السيكولوجى» وهو ألا أسمع شيئاً لا أحب
أن أسمعه مع أن جارى يسمعه

وعكس ذلك يحدث . فإذا كنت أعتقد إني سأرى شيئاً أو إنساناً
فإن من المؤكد أني سأراه وإن لم يكن حاضراً . وإذا كنت أعتقد أني
سأسمع شيئاً فإني سأسمعه وأن لم يكن هناك ما يسمع

بل إني أستطيع أن أؤلف صورة أو أسمع صوتاً لا بما شئ . يحس .
وذلك للعقيدة التي تبعث في نفسى رغبة تشبه العاطفة كي أصدق
لنفرض أنى مريض أشتى الشفاء . وأنا أعتقد أن الروح ستأتى
إلى الغرفة المظلمة وستقول لى أننى سأشفى . فالعقيدة تبعث في نفسى
الرغبة في التصديق . وأيما صوت يحدث أمامى أفسره بأنه يقول
. أنت ستشفى .

وعندئذ أخرج وأنا مرتاح وأشهد بأنى سمعت الروح تتكلم
وهذا عبث

لماذا يترك الناس التفكير المنطقي ويعمدون إلى العقيدة ؟
إن فى الإجابة على هذا السؤال التفسير المقنع للتعلق بالآرواح
ذلك أن المؤمن بالآرواح يعتقد ، وقد يتعقل ، وهذا الاعتقاد برهان
على أن فى نفسه حاجة ملحة إلى الإيمان بعقيدة يعتمد عليها كما لو كانت
جداراً يستمسك به أو عصاً يستند إليها

والتعقل لا يحدث انفعالا إلا الأقل الذى لا نكاد نحسه
ولكن العقيدة تحدث انفعالا قوياً ، إذ هى لا ترجع إلى منطق
العقل الذى لا يعتمد على المعاينة والرؤية وإنما ترجع إلى الحاجة النفسية
حين نحس الشك أو الخوف أو الزعزعة فنلجأ إلى عقيدة معينة نستند
إليها كما لو كانت الدواء الوحيد الباقى لنا

ومن هنا السهولة في مناقشة أحد الناس في شأن يتعلق بمنطق العقل وإقناعه بتغيير رأيه إذا كان مثلاً . ولكن من هنا أيضاً الصعوبة في إقناع رجل ينأى بعقيدة وحمله على تغيير هذه العقيدة : إذ هو منفعل بها ، خوفاً أو أملاً أو نحو ذلك . وهو يخش أن تخليه عن عقيدته يزعم كياناً وهو لا يطبق هذه الزعنة

وأى إنسان يعتقد في شيء ما إنما يثبت بهذا الاعتقاد أنه يعالج به مركباً أو عقدة نفسية يمكن السيكولوجي بالتحليل أن يعرف مصدرها ويعين أسبابها . ولكن الأغلب أن هذا الإنسان يرفض التحليل للوقوف على أصول عقيدته لأن كيانه النفسى مرتبط بها

فالمجنون الذى يعتقد أنه ملك على مصر أو مدير أو محافظ لإحدى المديريات أو المحافظات لن تستطيع أن تقنعه بأنه مخطئ . لأنه مرتاح إلى هذه العقيدة . بل كذلك هذا الرجل الذى يزعم أن الأرض ليست كروية وإنما هي مسطحة ، فإن جميع البراهين التى تصفع بها عقله لا قيمة لها إزاء استمساكه بعقيدته . وكذلك المؤمن بالآرواح العقائد عاطفة . والعاطفة قريبة من الجنون الذى يغشى العقل ويظلمه بل يذهب . ونحن لذلك نغضب بل نخفق حين يجادلنا أحد في عقيدة نعتقد أنها تثير في أنفسنا عاطفة لا تتحمل نارها

سيكولوجية الصحافة

الصحافة ، مثل الرسم أو الموسيقى أو الشعر ، موهبة . ولكننا لا نعي أن الانسان « يولد » صحفيا . لأن المواهب ، بل العبقريات أيضا ، ليست وراثية وإنما هي تكتسب بالبيئة والنشأة والتربية والحاجة الاجتماعية

والصحفي الموهوب ، عندما تسأل عنه أيام صباه ثم شبابه ، تجد أن غرامه بالصحافة كان يشغل ذهنه ويستنفذ نقوده ويستولى على دروسه ويقلق عائلته . فانه حوالى الثانية عشرة مثلا ، كان يجمع الصحف ويقلب المجموعات من المجلات ويعرف الكثير من التفاصيل عن حياة المحررين والمخبرين والكتاب . فإذا تقدمت به السن وجدت أنه يرسل الصحف والمجلات قبل أن يبلغ السادسة عشرة ويحاول زيارة الصحفيين ويكتب المقال ويشتري الكتب التي يسترشد بها عن حرفة الصحافة

ولا عبرة بالقول بأنه كان في تلك السن فجأ يكتب السخافات ويؤلف الهذر من القصص أو المقالات . فإن لجاجته هنا طبيعية منتظرة لأنه مبتدئ . ولكن العبرة بأنه يسير على الطريق الواضح ، وهو أنه «يهوى» الصحافة وأن لها في قلبه مكانا لا يشغل مثله أى موضوع آخر

وهنا السؤال السيكولوجي : لماذا ، يهوى ، الصحافة دون غيرها

من الحرف ؟

إن أهواءنا لا نطرقاً مناجاة . وإنما هي تتكون وتنمو وتبلور . وهي في الأغلب تبدأ في تكونها أيام الطفولة . ثم يكون لها من أيام الصبا ما يغذيها إذا وجدت الغذاء . فإذا وصلنا إلى سن الشباب عمدنا إلى التوفيق بين الهوى والمصلحة ، أو بين نزعاتنا الفردية والملاءمة الاجتماعية ، وعندئذ نختار من الحرف أو الصناعات أو الأعمال الكاسية ما يتفق والهوى القديم الذي نشأ أيام الطفولة ونما أيام الصبا

قد يكون هذا الهوى ، وذيلة لم تجد التربية السليمة لمعالجتها . مثال ذلك طفل نشأ على حب القسوة وكان في طفولته يهوى قتل الفراخ في أساييمها الأولى . فإذا لم يجد التربية السليمة لمعالجة هذا الهوى ، فإنه يتجه نحوه السادية ، أى القسوة في الاشتباه الجنسي . وهذا بالطبع مرض . ولكن ليس ضرورياً أن يصل السادي إلى درجة المرض الذي يحتاج إلى علاج . إذ هو ، بضغوط الظروف التي تربيته ، يتسامى بالسادية فيحترف العسكرية ويدعو إلى القتال . أو يحترف الطب ويجد في الجراحة ما يلائم ساديته مع المنفعة الاجتماعية ذلك لأن في الجراحة من شق البطون أو تمزيق الأعضاء أو بتر السيقان قسوة تنزع إلى السادية . ولكنها سادية متسامية قد ارتفعت من مستوى المرض إلى مستوى المنفعة

السادية في أصولها النشيمة تعذيب للبرأة وقت الاتصال الجنسي .

وهي ، بالتسامى ، حرفة أو عمل يحتاج إلى شيء من القسوة ولكنه يخدم

المتجمع

ولكن السادية ، مع ذلك ، أصيلة في جميع الناس بلا استثناء ، ولكن بدرجات منخفضة لا نكاد نحس بها ، فإن في الإتصال الجنسي بين السويين ، شيئاً منها . وكثير منا يحب أن يرى القتال بين الحيوانات أو يجب قراءة القصص التي تعفل بالقتل والحطف والغدر ، فإننا نحس هنا لذة سادية لنا فيها نصيب المتفرج وليس نصيب المشترك

ولكن هذه العاهة النفسية قد تفدح حتى ليقتل الرجل ، المريض ، شريكه في الاتصال الجنسي وقت الاتصال

وجميع الأمراض النفسية أصيلة في نفوسنا سواء أكنّا أحماء أم مرضى ، وإنما يختلف المريض من السليم بالكيم وليس بالكيف . وليس من نسميه (مجنوناً) يهذى بأنه ملك مصر ، أو بأنه يركب الجواد ويطير به في الهواء ، أو بأن التنطار يدوسه ويفتت أعضائه ، ليس هذا المجنون المريض طراز آخر غير طرازنا نحن السويين . فإننا نشترك معه على الأقل بأننا نسلك سلوكه وقت الأحلام حين يتسلط عقلنا الباطن على عقلنا الواعي

و (المجنون) يختلف منا فقط في أننا لانخضع لهذا التسلط سوى دقائق وقت الحلم ، أما هو فيبقى طوال السنين وربما طيلة حياته وعقله الباطن يتسلط على عقله الواعي

وهناك ، إلى جنب السادية ، عاهة نفسية جنسية أخرى تفدح أحياناً حتى تقود صاحبها إلى السجن أو المارستان ، هي ما يسمى « العرض »

وقبل أن نذكر « العرض » ، نحتاج إلى أن نقول إن العاهات النفسية كثيراً ما تتبلور في الاتصال الجنسي . فإن السادية تظهر على أسوأها في هذا الاتصال . و« العرض » كذلك يتباور ويظهر على أوجهه في الرغبة الجنسية . لأن « العارض » يبدى أعضائه التناسلية قهراً واضطراباً بحيث يقع تحت طائلة العقاب على العمل الفاضح .

ولكن هناك أيضاً العارض الخفيف الذي يتجاوز المواقف الجنسية . فيرتفع إلى الملاءمة الاجتماعية . فإن « حب الظهور » هو إلى العرض بمثابة فن الجراحة إلى السادية .

وذلك الرجل الذي يهوى الخطابة ، أو الصحافة ، أو المسرح ، أو السينما ، هو عارض أيضاً من حيث لا يدري . قد ارتفع بعاهة جنسية أصيلة في جميع الناس فاقصر منها على حب الظهور في حرف تحتاج إلى هذه الخصلة الأخلاقية

فالصحافة ، من الناحية السيكلوجية ، يمكن أن تسمى عرضاً متسامياً .

ولكن الصحافة ، مثل الجراحة ، تحتاج إلى درس وتعب . وتنقيب . وهذا الدرس نفسه يعود إلى مركبات عديدة . فهناك الصحافة اليسارية التي تنتم بالثورة أو التمرد على الأوضاع الاجتماعية أو الفنية أو السياسية أو المعارضة للنظم والعادات . وأعظم من يذبح فيها هو ذلك الشخص الذي لم يسعد بحياته العائلية . فإنه ينشأ متمرداً في المجتمع ، ونعني هنا أن يكتسب هذا الاتجاه منذ طفولته حين لم يكن يجد الحربة في البيت فصار بعد ذلك ينشدها في الوطن

ونحن في كل ما ننشد من أمان وفي كل ما نتجه إليه من خطط
إنما نستوحيه ، كما سبق أن أشرنا ، من حيث لا ندرى أو ندرى ، من
أيام طفولتنا . نستوحيه خاماً بدايياً . ثم ، بعد أن نتعلم ونتسامى بعاداتنا
الفكرية الأولى ، ننشد نظاماً يتفق وما تولد في نفوسنا من ميول
طفلية

والصحنى يأخذ في درس الموضوعات التي تتصل بهذه الميول ، وهو
قد يأخذ من الصحافة بالناحية الخبرية ، أو بالترجمة ، أو بالعلوم والآداب ،
أو بشئون المرأة ، أو بشئون الشباب . وهو في كل ذلك يستند إلى
اتجاهات أصيلة تنهض على مركبات قديمة في كيان شخصيته
وهنا نحتاج إلى أن ننقل من الأساس السيكلوجى « العرضى » إلى
أساس سيكلوجى آخر . فإن هناك طرازين من الناس أحدهما الطراز
الانطوائى الذى يقسم بوجهه مستطيل نحيف وقامة مديدة نحيفة ورأس
لا تصلح فروته . والطراز الانبساطى الذى يتسم بوجه مستدير سمين
ملى باللحم ورأس يبدأ فيه الضلع ، منذ سن الخامسة والعشرين ، من
الجهة ويسير نحو الخلق في نظام كأنه مرسوم ، بحيث لا يصل الانبساطى
إلى سن الخمسين أو حتى الأربعين إلا ويكون أعلى رأسه في صلع تام .
وهذا إلى أن الانبساطى يسمن ويستكرش وهو في الأغلب ليس مديد
القامة مثل الانطوائى

هذا هو الرسم الكروكى لكل من الطرازين في اللحم والعظم . أما
الرسم النفسى فيتلخص في أن الانطوائى يتأمل أكثر مما يتحرك ، ويجد
أكثر مما يهزل ، وينفرد أكثر مما يجتمع . وهو إذا دخل في الصحابة

كتب المقالات وألف الكتب وعلق على الأخبار وفق المبادئ والمذاهب
وبكلمة أخرى هو فيلسوف الصحافة المتأمل المفكر المتمذهب
أما الانبساطى فيحب الحركة وينقل ويتعب كى يتحرى حقيقة
الخبر . وهو خفيف الروح كثير الدعابة والمزح . وهو يرى على الدوام
بجتمعا ، يأتس بحديث الأصدقاء ويكره الانفراد . وهو لا يميل إلى
الفراة والتأمل . وهو فى الصحافة كاتب الخبر لا يطبق قراءة المقال
ولا يعرف كيف يكتبه

وجرائد الأخبار والصور هى الجرائد الانبساطية التى قد تسرف
فتنشر لنا أخباراً أو صوراً تنأى عن التحفظ والوقار
وجرائد المقالات والتعليقات هى الجرائد الانطوائية ، قد تسرف
فتتنجب رواية الأخبار وتحتقر قيمة الصور فيعزف عنها جمهور الفراء

الاستقلال هو الشرط الأول للشخصية

الشخصية شيء نعرفه ونلسه في بعض الأفراد ، ولكننا لا نعرف
كيف نعين تعريفه

فقد ذكر المؤرخون أن إخناتون كان أول شخصية في التاريخ .
وذلك لأنه رفض الانسياق وراء التقاليد والإيمان بما يؤمن به المجتمع
المصري القديم ، وآثر استقلاله الفكري فكفر بالآلهة وآمن بآله
واحد

ونحن نرى هنا علامة أولى بل علامة كبرى من علامات الشخصية
وهي استقلال الفكر . استقلال السلوك ، الجرأة على التصريح بالرأى
الخاص ولو خالف هذا الرأى مزاعم الجماهير أو مزاعم الخاصة
وفي القرن الرابع نجد في مصر خلافاً مذهبياً كاد يكون شجاراً .
ذلك أن أحد المصريين ، هو الاسقف اثناسيوس ، ارتأى رأياً في الدين
يخالف آراء الكافة من رجال الدين في الدولة الرومانية الشرقية . واستمسك
برأيه وببث عليه . فقال له أحد الأساقفة :
— إن العالم كله ضدك

وهنا نجد موقفاً مشابهاً لموقف اخناتون هو أن الشخصية تحتاج إلى شرط لا غنى عنه هو استقلال الرأي

ونحن حين نعجب بأبي بكر أو عمر ، أو بغاندى أو نهرو ، أو بـابراهيم لنسكولن أو ثورو ، إنما يكاد ينحصر إعجابنا في أن كلا من هؤلاء كان مستقلاً في رأيه لا يبالي ولا يخشى ما يقوله الآخرون

بل إن استقلال ثورو قد ارتفع إلى حد العمل . فإنه كان يقول بضرورة العصيان المدني ، وعمل بهذا القول ، فرفض أن يؤدي الضرائب . وحبس لذلك

وكل هؤلاء الذين ذكرنا ، نصفهم بأنهم كانوا يمتازون بشخصيات قوية ، لأنه كانت لهم ميزة الاستقلال في الرأي

والشخصية بطبيعتها اجتماعية

وليس هناك مع ذلك من ينكر أن هناك اختلافات في الكفاءات الوراثية تعين وتميز بين الشخصيات الإنبساطية ، ولكن المجتمع هو الذي يعين ٩٩ في المائة من الشخصية

أى أننا نكتسب الشخصية من الوسط الاجتماعي الذي نعيش فيه ، ومن الحوادث التي نلتقيها في حياتنا ونستخلص منها عبرة لأخلاقنا وحكمة لسلوكنا

ولذلك هناك المجتمعات الحرة التي تتيح للفرد أن يستقل ولا يخشى الموت أو ما يقارب الموت من المقاطعة . وهذه المجتمعات تبني شخصيات أفرادها

أما حين يكون المجتمع تقليدياً ينكر حرية الفكر ويجعل للعادات

فى اللباس ، والسلوك ، والعيش ، قواعد لا يجوز نخطيها ، فإنه يهدم
الاستقلال ويعطل نمو الشخصيات

إننا نذكر نابليون بحروبه . ولكن هناك موقفاً واحداً وقفه
يجعلنا ، حين نذكره ، نعزو شخصيته إليه دون هذه الحروب
ذلك أنه حين عزم على أن يكون (أمبراطوراً) احتاج إلى أن
يجعل البابا، زعيم الكاثوليكية فى العالم ، يضع التاج على رأسه . ولكنه
فى اللحظة الأخيرة تذكر استقلاله ، فنهض وحمل التاج بيديه ووضع
بنفسه على رأسه ، كأنه أراد أن يعلن للعالم أنه مستقل

وفى أيامنا يؤكد سارتر استقلال الشخصية البشرية ، وأن أول
شرط لهذا الاستقلال أن تؤمن بما نعتقد نحن ، وليس بما يعتقد غيرنا
من التقاليد الاجتماعية أو العقائد الغيبية ، وهذا الاستقلال هو أعظم
ما يجذب إليه الشبان فى فرنسا بل فى أوروبا

وحين يحيا الشعب فى نهضة تكثر الشخصيات فيه ، لأن النهضة
تدعو إلى الانطلاق من القيود واستشعار الحرية، وكلاهما يعمل للتفكير
المستقل ثم لبناء الشخصية. ولذلك ، نجد شخصيات مستقلة بل مسرفة
فى الاستقلال أيام النهضة الأوروبية مثل باركيوس وجاليليو وعشرات
غيرهما

باركيوس الطبيب الإيطالى يحمل مؤلفات جالينوس وابن سينا
ويحرقهما علنا فى ميدان المدينة ويصبح فى الشعب بأن القدماء لا قيمة لهم
وجاليليو يجبر على الاعتراف بأن الشمس تدور حول الأرض فإذا
وصل إلى الباب ليخرج يقول: بل الأرض هى التى تدور

كلاهما له شخصية قاعدتها الاستقلال في الفكر والرأى
ولكن الاستقلال في الرأى لا يعنى عناد الجاهل أو تمنع الأبله
ذلك أن الشخصية تحتاج إلى المعارف التى تستقصر منها حكمة العيش
وسداد القصد . وقد تكون هذه المعارف مقصورة على شئون التجارة
وعندئذ نجد التاجر الذى يمتاز بشخصيته . وقد تتجاوز ذلك إلى الآداب
والفلسفات ، وعندئذ نجد المنكر الذى يستقل فى فكره ورأيه
بشخصيته العالية

وأعظم الشخصيات بالطبع إنما تلتقى فى وسط تزد . المعارف السليمة
السديدة والاختبارات الثانية العديدة

وقوة الاختبارات ووفرة المعارف تكونان الشخصية

ولذلك نحن لا نجد شخصية للبراة التى تقصر وجودها بل حياتها
على شئون البيت لا تعرف المجتمع أو الثقافة أو حتى الضيافة . ولكن
المرأة المصرية التى خرجتها جامعاتنا فى العشرين سنة الأخيرة تمتاز
بشخصية ، لأن لها رأيا المستقل وأهدافها الشخصية التى قد تخالف
مألوف المجتمع

إن الوسط الاجتماعى ، بقدر ما يتيح للأفراد من استقلال، وأيضاً
بقدر ما يتيح لهم من اختبارات ومعارف مختلفة ، يكون الشخصيات
فوسط المدينة لهذا السبب أدعى إلى تكوين الشخصيات من
وسط الريف

وأحب أن أكرر أن الشخصية لا تعنى العناد أو التمعت . فإن

هذين المعنيين يثبان إلى أذهاننا حين نذكر الاستقلال الذى كثيراً ما يكون ثباتاً على رأى . لكن نحن واهمون هنا . لأنه إذا كان الثبات على رأى سديداً يدل على شخصية قوية فإن المرونة كذلك تدل على عقل يقظ . وهذه المرونة هى التى تهىء الفرد لمواجهة المواقف الجديدة حتى يتغير ويتطور

أين شخصيتك أيها القارىء ؟ أين استقلالك ؟

إن الدنيا تتغير بالشخصيات المستقلة التى تأبى الخضوع والاسفلام لعادات الأسلاف وتقاليد القرون . الشخصيات التى تثبت على رأى الشخصى الناضج ولكنها أيضاً تتغير وتتطور بمقتضى الظروف

السعادة هي أن تمارس الحياة

منا من يمارس التجارة أو الزراعة . ومنا من يمارس المحاماة أو
الطب أو وظيفة ما في الحكومة أو الهيئات الحرة
ونحن كى نمارس فنّاً أو صناعة أو حرفة ، نحتاج إلى أن ندرسها
ونعرف أسرارها ونمهر فيها . وعلى قدر دراستنا يرتفع مقدار كسبنا
منها أو تفوقنا فيها

ولكن الذى نساء أن قيمتنا الإنسانية واستمتاعنا وسعادتنا ،
بل صحتنا النفسية ، تحتاج جميعها إلى أن نمارس المحاماة أو الطب أو
الزراعة أو الصناعة وكما تحتاج هذه الصناعات إلى مهارة وحذق، كذلك
تحتاج ممارسة الحياة إلى مهارة وحذق . وهذا نهمله . وإهمالنا للممارسة
الحياة هو فى النهاية إهمال للصحة النفسية ، والتربية الذاتية ، وحكمة
العيش ، والفلسفة التطبيقية

وهذا المجتمع الاقتنائى الذى نعيش فيه يكسبنا أهدافاً ويعين لنا
أساليب تجعلنا نكبر من شأن الثراء والاقتناء. فنتعبد ونسجد حتى ننجح.
ولكن هذا النجاح فى الثراء والاقتناء فقط وليس فى الحياة
وهذا الرجل الذى كنا نعدّه مستقيماً فاضلاً يخرج من بينه إلى عمله

ويعود من عمله إلى بيته، يدخر ويقتني منزلاً ويمضي شيخوخته بطريقاً
يسوس عائلة تكاد تكون رهطاً ، هذا الرجل لم يعد المثل الأعلى
لنفسنا الحرة وعقولنا المستطلعة . إذ هو رجل عرف عاش حياة سلبية
يتوق فيها ويحتجز ولا يقدم ويقامر ويشتبك . وبكلمة أخرى لم
يمارس حياته

إنما نمارس حياتنا حين نعي أن فراغنا ١٨ أو ١٦ ساعة بينما علمنا
لا تزيد مدته على ٦ أو ٨ ساعات . وبناء على ذلك نعي بفراغنا العناية
الكبرى ، فنعرف كيف نقرأ الصحيفة والكتاب ، ونشتبك في شئون
السياسة والاجتماع، ونناقش فلسفة سارتر وماركس . ونحاول أن نفهم
الذرة ونعرف سطح المريخ ، ونختبر الدنيا بالسياسة ونختبر المرأة
بالحب ، ونجرؤ على أن نفهم هذا الكون ، ونجرؤ على أن نستكنه
الظلام الذي خيم على أبي نواس والمركيز دوساد كما خيم على نفوس
آلاف المجرمين . ونحاول أن نصلح هذا " ساد

إنما نمارس الحياة حين نسيح . ولا نعي بالسياحة تلك الوثبة
الجوية إلى قطر ناه نمضي فيه أسبوعاً وأسابيع في رؤية سينمائية للبدن
واللسارج . وإنما نعي أن يعنى كل إنسان من عمره عاماً أو أعماراً
في فرنسا أو الهند ، وفي الصين أو ألمانيا ، وفي السودان أو تركيا

أليس هذا الكوكب ملكنا ؟ فكيف إذن نفادره بالموت قبل
أن نراه ونختبره ؟ قبل أن نرى مشروعاتهم الكبرى في زراعة صحاريه ،
وفي تشييد المجارى ، استغلال قطبيه ، وفي تربية الأسماك
في حطباته ، وفي إنشاء المزارع ، وفي تعميم التعليم والثقافة ، وفي مكافحة

الحرب والمرضى والجهل والفقر ؟

إن ممارسة الحياة فن على كل منا أن يتعلمه بنفسه ، وأن يقدر
الفرص المتاحة له كي يجرؤ ويستطلع ويختبر . وأعظم أنواع الاختبار
وأجلها وأسمها هو الحب الذى ينتهى بالزواج فيبنى حصناً من
السعادة الدنيوية

وشبابنا يميلون دراسة الحياة ثم يعجزون عن ممارستها ، وقصارى
مجهودهم فى الدنيا أن يمارسوا صناعة الارتزاق . وقد ضيق علينا
الاستعمار والاستبداد معاً حين منعنا إنشاء المصانع ، حتى صار
الارتزاق مشكلة ، ونشأ التعطل فأصبح الهم والاهتمام الأولان لكل
شاب الحصول على عمل للارتزاق . وحتى أصبح الاتجاه للنشاط
وابتعاث الهممة والطموح مقصورة جميعها على لقمة العيش لا أكثر

وأسوأ من الشاب الفتاة ، على الرغم من القلة الصغيرة التى تعلت
من نساتنا واحترفت الحرف لاتزال الملايين من فتياتنا ونساتنا
يحتجزن فى البيت كأنه هو كل ما ينبغى أن تطلق فيه طاقتهن البشرية .
وكان هذه الدنيا بما فيها من علم وصناعة ، وعمل وسياحة ، وفلسفة
وسياسة ، كأنها لا قيمة لها عندهن . فهن فى احتجاز منزلى قد أدى إلى
احتجاز ذهنى

وليس المنزل ، فى تطوره الأخير ، بما يتوعب نشاط المرأة .
بل هو لا يتوعب نصف نشاطها . ويجب لذلك أن يكون لكل امرأة
نشاط خارج هو نشاط الحياة الحية المتسائلة المستطلعة الدارسة المتنبكة
فى شئون كوكبنا . لأن ما ينطبق على الرجال فى ممارسة الحياة ينطبق
على المرأة

وهذا الدستور الجديد الذى منح المرأة حق الانتخاب قد فتح كوة لها على الدنيا . وهى كوة صغيرة بلا شك ولكنها سوف تتسع بل تتراحب إلى ميادين ثم إلى آفاق فى المستقبل . وعندئذ يزول عنها حجاب العقل كما زال عنها حجاب المنزل

وأخيراً يجب أن أقول إن الفرق بين رجل سعيد سليم النفس ، وبين رجل بائس مريض النفس ، هو أن الأول كثير الاهتمامات العليا التى ترفعه من الشئون العادية اليومية إلى قمم الأفكار حتى يحس بأن هذا العالم كله هو قريته التى يعرف ناسها وشوارعها ويهتم بإصلاحها وإتمامها . أما ذلك البائس الذى لا يدرك أحياناً ، لفرط بؤسه ، أنه بائس ، فهو ذلك الذى لا يهتم إلا بسلامته ولقمة . وهو جدير عندما يموت أن يكتب على قبره :

« ولد إنساناً ومات بقالا »

أنت أيها القارىء إنسان قبل أن تكون موظفاً أو صانعاً أو فلاحاً أو محامياً أو مهندساً أو بقالا . فأحيى إنسانيتك وغذاها بالاهتمامات العالية . وأذكر أن من حقق أن تستقطر آخر قطرة من السعادة على هذا الكوكب ، إذ ليس لك كوكب آخر تعيش فيه وتتشدد فيه السعادة . لأن المريح لا يزال حلياً لما يتحقق احتلاله على أيدي البشر

لا تسكن في حرب باردة مع نفسك

كثيراً ما دسيت إلى الأخذ بأساليب الحضارة الغربية العصرية وأهدافها . وقد يعتقد من يقرأ قولي في هذا الموضوع أني مغرم بهذه الحضارة لا أعرف ما هو أسمى منها . وهذا وهم أعذر القارىء عليه ذلك أن ما يدفعني إلى القول بالأخذ بالحضارة الغربية العصرية إنها حضارة عدوانية مسلحة في السلم والحرب ، وأنا إذا لم نجارها استطاعت أن تهزمننا وتكتسحنا بل تبديدنا كما تفعل الآن مع الزنوج في إفريقيا . وأكبر أسلحتها هو الصناعة التي يجب أن نعجل بل نهزول في الأخذ بها

ولكنني مع ذلك لا أعمى عن العيب الأصيل في هذه الحضارة وهي أنها انفرادية إقتنائية تراحمية عدوانية شعارها الذي تعمل به هو : تنازع البقاء ، والبقاء للأقوى ، وأنا وحدي ، والموت للتخلفين وهذا النظام الانفرادي الذي تحاول جميع الطبقات الواعية أن تنقل منه إلى نظام تعاوني اشتراكي هو الأصل في جميع أو معظم أمراضنا النفسية ، وفي جميع ما نعانى من هموم وتوترات ومخاوف قد تحملنا على الإجرام أو تردينا في مهاوى الجنون أو تدفعنا إلى الهروب والنسيان بالجنون والمخدرات

هذا النظام الانفرادى هو الذى يشيع القلق بيننا ، لأننا نخشى
التخلف والإفلاس والفقر والجوع ، فنمتلئ هموماً تزيع عيوننا وعقولنا
عن رؤية الحياة كما يجب أن ترى بقيسها الإنسانية الحقيقية بدلا من
القيم الاجتماعية الزائفة التى تملأ علينا هذه الحضارة . ولذلك عندما
نقول بالأخذ بالحضارة الأوربية العصرية يجب ألا ننسى هذه العيوب
الأصلية فيها . وإنما ندعو إليها مؤقتا كى نختمى من عدوانها .
سلاح سلاح . ثم نسعى لإيجاد المجتمع الاشتراكى الذى يريحنا من
مأساها وظفاعاتها

كلنا مهموم . والهموم سدوم . تأكل أعصابنا وتعشى أمراض
النفس والجسم فى أشخاصنا وتقصر أعمارنا . فإننا نحيا ، بحكم الأخلاق
التي يعلينا عليها المجتمع الانفرادى الحديث ، فى طموح يرهقنا ولا نستطيع
أن نتحمل مسؤولياته . ونطمع فى الثراء أو الجاه بأكثر مما نطيق . ونعاني
ألواناً من الحسد والغيرة فنحقد ونتمسك . وكثيراً ما نكظم . وليس
شئ يخطم الجسم والنفس مثل الكظم . وأحياناً نستسلم لخرافات تثير
فى دوسنا عواطف زائفة قد تنتهى بموتنا أو دمارنا أو جنوننا

أعتبر هذه الموتة التى نشأت عن روح الاقتناء
شاب قبطى أورثوذكسى أحب فتاة قبطية بروتستنتية وشرعى
الوسائل للزواج منها . ولكن أمه كانت أورثوذكسية متعصبة لمذهبها ،
أورهي كانت تعتقد ذلك . فحاولت أن تمنع ابنها من إتمام هذا الزواج ،
ولكنه أبى وأصر على إتمامه . فتمردت الأم ، حناة المستقبل ، إلى الفتاة

واعتذرت إليها عما قامت به من محاولات للتعريق وقبلتها . وعادت إلى منزلها ، وتم الزواج
 وحدث . بعد ذلك أنه في صبيحة اليوم التالي للعرس أن استيقظت .
 الحناء وهي سماء لا ترى شيئاً . وبعد أيام حدث لها فالج . وفي نهاية
 الأسبوع ماتت
 فما هو التفسير ؟

التفسير أنها كانت تنتظر إلى إنها بروح الاقتران كما لو كان عزبة
 ملكها . ونسب أن تخرس عليها حتى لا تضيع منها . روح الاقتران هي
 الروح العامة الحاضرة الإفرادية التي أخذنا بها الحضارة الاقترانية .
 ولذلك رعبت الأم عندما أحست أنها ستفقد إنها بالزواج . ووجدت ،
 بل اختارت ، من حيث لا تدري ، العلة السطحية الوهمية ، وهي أن
 الفتاة ليست أورثوذكسية مثلها ومثل ابنها

واعتبر هذه المرونة الثانية

كان عاملاً فقيراً في مصنع . وارتقى لكثرة ما يبذل من مجهود أحمق
 أن يقوم به رجلان بل ثلاثة بدلاً من واحد . وبكلمة أخرى كان يرهق
 نفسه ويهتم ويقلق . إرهابي وقلق أحدثا له زيادة في ضغط الدم فصارت
 الصفائر تبدو له كبائز ثم ذات صباح مات بانفجار في المخ
 فما هو التفسير ؟

كلنا يطمح إلى النجاح ، وهذا الطموح فضيلة إذا مارسناه في اعتدال
 يلا إسراف . ولكن النجاح ماء ملح يزيد عطشنا . ولذلك أرمق هذا

الرجل نفسه كى يستريد من النجاح . فكان يجهد ويعمل أكثر
 مما يتحمل حتى زاد ضغط الدم على درجة الاعتدال . وانتفخت الشرايين
 حتى انفجرت

ونجتمعنا، كما يدعوننا إلى الاقتناء، يدعوننا كذلك إلى الطموح وأحياناً
 يقتلنا، أو نحن نقتل أنفسنا بالعطش إلى الاقتناء وبإحساس الطموح
 المسرف . وفي كليهما قلق وهم يحدثان إرهاباً يؤدى إلى توترات ومخاوف
 لانطيقها

كل منا لهذا السبب ، فى حرب باردة مع نفسه ، إلا أولئك الحكماء
 الذين عرفوا كيف يقنعون وكيف يسوسون أعصابهم وينظرون إلى
 الحياة النظرة الفلسفية ويسلكون السلوك الحكيم
 لقد قام « بافلوف » بتجارب على الكلاب نستطيع أن نستخرج منها
 حكمة حياتنا فى هذه الحضارة التى ترهقنا وتقلقنا . ذلك أنه علم طائفة
 من الكلاب أن تنتظر تقديم الطعام بعد رنين من الجرس يبلغ ٥ رنة
 فى الدقيقة . فإذا زاد الرنين إلى مائة رنة فهم الكلب أن الطعام لن
 يقدم إليه

٥٠ رنة تعنى طعاماً

١٠٠ رنة تعنى « لا طعام » . أى حرماناً

وكرر بافلوف هذا الدرس للكلاب حتى فهمته واستقرت عليه
 ثم قام بتجربة أخرى تتصل بنا نحن البشر . وذلك أنه جعل
 الجرس يذق ٧٥ رنة ثم يقف . فلا هو يؤذن بالطعام ولا بالحرمان

فأذا حدث؟

حدث القلق عند الكلاب من الشك . فصارت تعوى وتتنور
كأنها تبكى وتأن

نحن في الحضارة العصرية نعيش في قلق الشك لا نعرف هل سننجح
أم نخيب؟ هل نرى أم نفلس؟ هل نمرض أم نبقى في صحتنا؟ هل نموت
أم نموت؟ وكذلك لنا شكوك بشأن أولادنا وأصدقائنا
نعيش في الحضارة العصرية على درجة ٧٥ رنة في الدققة ، لا طمأنينة
بالطعام ولا يقين بالحرمان . ولذلك نحس القلق الذي يزيد ، بقوة خيالنا ،
إلى مخاوف وأمراض نفسية خطيرة

وهذا القلق يجعلنا مكروبين ، ضائقين ، متوترين
والتوترات ترهقنا لأنها تحملنا على أن ننفق من قوة أعصابنا على
العمل الصغير أكثر مما يستحق . لأن المتوتر كالمتعجل المهرول الذي
يحاول ربط حذائه فيخطئ . ويكرر المحاولة . أى أنه ينفق قوته سدى
وقد وجد بافلوف أن الكلاب القلقة التى ألح عليها بدرجة ٧٥ رنة
تقصر أعمارها وتمرض بأورام مختلفة ويسقط شعرها وتصاب بما يشبه
الروماتزم في مفاصلها . أى أنها تبكر في الشيخوخة
أى أن القلق العصبي عند الكلاب ، ويقابله القلق النفسى عندنا ،
يمرضنا للأمراض الجسمية وينقص أعمارنا
كيف نسوس أعصابنا ونحن نعيش في حضارة تبعث في نفوسنا

الشك والتلق وتحميلنا على التوترات التي لا تنقطع ؟
يجب أن يدرس كل منا حياته ويعرض للسنين التي مضت من عمره
والسنين التي ينتظرها ، ثم يؤلف من هذه الحياة نظاماً معقولاً بعد أن
يقيس كفاءاته إلى مقدار ما يواجهه من ظروف . وعندئذ يعرف ويستقر
على سلوك معين تراحح إليه نفسه

فنظامنا الاجتماعي الحاضر يمجّد الأنانية ويذلّنا بروح الطمع
والاقتناء ، ويبيع في نفوسنا عواطف المباراة والحسد والغيرة . ونحن
في حاجة إلى شيء من هذه العواطف كي نجد ونكسب حتى نعيش .
ولكن يجب أن نفعل هذا بلا إسراف حتى لا نرهق ، أي يجب أن نجد
طموحنا فلا نطلب النجوم التي لن نألفها

وتوترات النفس تؤدي إلى توترات الجسم ، والعلاج الأول
للتوترات هو النوم الذي وصفه نيتشه بأنه سيد الفضائل . ولكن يجب
أن ننام كي نستيقظ لأن النوم ليس غاية إنما هو وسيلة لأن نصحو
ونجد ونتبه ونفهم . وإذا كان النوم حسناً وافياً صارت يقظتنا حسنة
وافية

وأقل من النوم في الراحة هو الاسترخاء للعقل والجسم
ويجب أن نلجأ إليه من وقت لآخر . بل يجب ألا ننام إلا بعد
الاسترخاء . أي يجب ألا نطلب النوم ونحن في التوتر نحس الكرب
والضيق . لأن نومنا عندئذ لن يكون استجماماً ، إذ هو سيمتلئ بأحلام
الكابوس ، فنشاجر ونساق في النوم . ونستيقظ مرهقين متعبين
قد يرد القاريء بأنه لا يتألك توتراته قبل النوم . وجوابي هنا :

. أكذب على نفسك . . أى فى اللحظات الأخيرة وأنت تشرع فى النوم ، وقد تمددت واسترخيت على الفراش ، قل مثل هذه الكلمات الإيجابية أو ما يقابلها من ظروف حالتك :

. أنا مرتاح . فى استرخاء تام . سأنام نوماً عميقاً مريحاً إلى الصباح .

قل هذه الكلمات نحو عشرين مرة وثق أن عقلك الباطن يسمع بها . لأنك عندئذ لن تكون نائماً فقط بل منوماً أيضاً تقبل الإيماء ولكن تذكر أن الاستجمام السيكلوجى الأصيل يقتضى تخلصك من همومك وتوتراتك . ولن يكون هذا إلا إذا راجعت حياتك ووزنت كفاءتك وفلسفت . والفلسفة هنا لا تنقص ضرورتها لك عن الحيز لاتسكن فى حرب باردة مع نفسك ، فان نفسك هى إنسانة جسمك . ولا تثر فى نفسك عواطف الطموح الجسرف ، والحسد والغيرة ، والرغبة الجامحة فى النجاح والافتناء .

ثم ما ينتج عن هذه كلها من عواطف القلق والخوف إذا لم تتحقق ، ثم التوترات فالانهيار

قاوم روح الحضارة الانفرادية فلا تتركها تسكتسحك . وفكر فى الحب والتقناعة . وخذ بفضائل عليا جديدة . وأعظمها أن النجاح الصحيح هو صحة النفس والجسم ، مع النمو فى الثقافة والتوسع فى الوجدان ، والحب للطبيعة والناس ، والاعتماد على العقل دون الانسياق مع العواطف وأخيراً لاتنس أن غذاء نفسك هو الفنون . فتعلم فناً ومارسه .

وكن ذكياً . وأعلى أنواع الذكاء هو الإنسانية

النعم المقسم

كان عبد العال إقبالاً صغيراً يعيش من دكان حقير في زاوية منسية في حي وطني . وكان يبيع البقول المتخلفة من الدكاكين الكبيرة ، وهي سقط البقول يشتريها سقط الناس . وكان يعيش مع أمه التي تجاوزت الحسين والتي عرفت من حياتها المريرة الماضية كيف تستغل القرش والمليم إلى أقصى حدودها في شراء الخبز البائت والبصل والفجل . وكيف تصنع الخل ، وتطبخ نصف الرطل من اللحم مع بعض البقول فتخرج منه أطباقاً من الطعام النسي

وكانت هي وابنها عبد العال راضين بهذه العيشة ، لا يطمان في أحسن منها ، إذ لم يكن هناك منفذ إلى ما هو أحسن

ولكن الحظ الذي يرفع ويحط نزل ذات يوم على عبد العال بما يقارب عنده ليلة القدر ، فإن عمه مات فجأة بلا وارث وكان يملك منزلاً يغل سبعة جنيهات في الشهر

وتسلم عبد العال المنزل ، واشترى بدلة أوربية ، وخلع الجلباب وأصبح عبد العال أفندي . وكبر دكانه وإزدحم بالبقول الحنة وإستخدم صبياً

وتسامع السا كنون القريبون منه بقصته : الميراث والبدلة والصبي وطمحت عيون الفتيات إلى الزواج منه وأصبحت أمه متمسكة تزورها سيدات الحى ، اللاتي لم يكن قبل ذلك يعرفنها ، ومع كل منهن ابتها التي تجاوزت العشرين أو كانت دونها بقليل . ولم يمض قليل على وفاة العم الموروث حتى كان عبد المال أفندى قد تزوج وبعد أقل من عام كان يستمتع برؤية ابنه زكى طفلاً جميلاً

وتجمع عند عبد المال أفندى من متجره ومن المنزل الموروث نحو ثلاثمائة جنيه ، بنى منها زيادات على المنزل ، ووسع متجره ، وأصبح يحس كبرياء جديدة فلا يحيى أصدقاءه القدامى ولا يتعرف إلا بالكبراء من الموظفين الذين يزيد مرتب أحدهم على عشرة جنيهات في الشهر . وكان يحس أنه يفضلهم لأنه كان يكسب من المتجر والمنزل نحو عشرين جنيهاً في الشهر

وكان الطفل زكى يقضى معظم وقته مع جدته التي كانت تدله وتعلمه سروراً وضحكاً وتمازحه وتدغدغه ، لأن أمه كانت مشغولة بتدبير المنزل وزيارات الصديقات

وبقى إلى سن السادسة وهو لا يكاد يعرف أن له أمّاً غير الجدة الحبيبة إلى قلبه . وكانت الخادمة تذهب به كل أسبوع إلى متجر أبيه حيث كان يعطيه في عجلة التليل من الحلوى بعد أن ينهر الخادمة لأنها جاءت به إليه ، ثم يأمرها بالعودة إلى المنزل

ولما بلغ السادسة ادخل في الروضة . وفي هذه السنة نفسها ماتت جدته . وأحس الصبي فراغاً نفسياً لم يفهم منه غير الصباغة التي

كانت تحمله من وقت لآخر على أن يقعد ساجداً في فكره ينظر إلى
غرفة جدته التي طالما لعب فيها ومرح وضحك

وكان أبوه ، الذي ترك المدرسة وهو في السنة الثالثة الابتدائية ،
يمتد على كل الذين استطاعوا إتمام دراستهم في حين هو عجز عن ذلك
لفقر عائلته . وكان ينظر إلى الموظفين الذين هم دونه في الكسب نظرة
النيرة لأنه هو يقال أما هم فموظفون محترمون

وهذا الاحساس جعله يرصد اهتماماته وأطباعه في أبنته زكي ،
وأنه يجب أن ينشأ النشأة العظيمة حتى يصل إلى الجامعة ويخرج منها
ويوظف . فكان هو وزوجته يتناولان هذا الصبي المسكين بعد عودته
من المدرسة بالالاحاح عليه في المذاكرة . ، وكانت أمه تسأله إذا غاب
عن ميعاد العودة من المدرسة بدقائق : أين كان ، ولماذا تأخر . وكان
الصبي يقعد إلى كتبه ودفاتره فيذاكرها ، فإذا انتهى منها لم يجرؤ على
تركها كي يلعب مع أولاد الشارع ولم يجرؤ على النوم . فكان ذهنه
يسرح في خيالات لذيدة تعوضه من سأم المذاكرة ، ومن هذه العقد
المعقدة وهو مربوط إلى مكتبته الصغير لا يرحله

وكان أبوه عندما يحضر من دكانه يقول له ، حتى وهو يراه قاعداً
مشغولاً بالمذاكرة : ذاكر ، ذاكر ، ذاكر . بل إنه حضر ذات
مرة في الساعة الثامنة وكان زكي قد نجح في الشهادة الابتدائية والتحق
بمدرسة ثانوية فوجده نائماً فابقظه وطلب منه أن يذاكر ، ويذاكر ،
ويذاكر

وقضى زكي السنوات الخمس بالمدرسة الثانوية وهو يذاكر وينجح

ويتهج . وكان أبوه ينظر بعين النمر إلى سلوكه ، فلم يكن يسمع له بالدخول في دار سينائية أو بالتخلف عقب المدرسة للعب ، أو بالممازحة حتى وهو يتعشى مع والديه . ولذلك كان زكى أخيب الثبان في كل شيء إلا في المدرسة . وكان أيضاً مع نجاحه في المدرسة معطل الذكاء . لا يعرف هل ثمن الخذاء عشرة جنيهات أم عشرة قروش . ولا يستطيع أن يتخيل أن أحداً في سنه يستطيع أن يسافر وحده من القاهرة إلى الاسكندرية . ولم يعرف شيئاً من جمال البقول ونضرة الزرع والزر ، ورأى زكى بعض زملائه في المدرسة يدخلون ففعل مثلهم ، ولما عاد إلى البيت أخبر أمه وهو يضحك بما فعل . ولكن هذه أخبرت والده الذي سلب عليه العصا الغليظة ، وضربه ضرباً قاسياً . ورآه أبوه ذات مرة وهو يقرأ قصة غرامية فنزعها منه وضربه بقسوة . ولم يكن يدخل البيت بحلة مصورة أو جريدة يومية أو قصة أو أى كتاب آخر غير الكتب المدرسية . ولم ينعم قط بنزق صغير أو كبير ونال زكى الشهادة التوجيهية وهو في حوالى السادسة عشرة وشرع أبوه يعده للدخول في كلية الآداب بالجامعة . وكان زكى كلما سمع عن الجامعة يضطرب لأنها كلها مذاكرة ، ولماذا لا يوظف من الآن ويستريح من المذاكرة ؟

وكان يلجأ إلى قراشه في شهور الاجازة ويفكر في هذا العذاب المنتظر من الجامعة ، وفي الرقابة الجهنمية التي كان يمارسها أبوه عليه حتى يقضى كل وقته في البيت في المذاكرة . فيحس كرباً كأن جسمه ينبض بالوجع . وكان قد عرف قبل سنتين العادة السرية ، وكان كل ليلة

تهرباً يسرى بها عن كظمه وحبس عواطفه ، وكان يتخيل الخيالات اللذيذة ، ثم يفرج عن نفسه بهذه العادة وينام مستريحاً

أما الآن وهو في السادسة عشرة فقد غرته الخيالات الجنسية وانغمس لذلك في هذه العادة التي صار يمارسها في اليوم الواحد نحو سبع أو عشر مرات . وأرهقته هذه العادة حتى كان يلهث عندما يصعد على السلم . وشجب لونه وممدت قواه . وكان يخفى كل ذلك ويخشى من هذا الاخفاء نفسه ، ويحس خجلاً وإجراماً كلما قعد إلى والديه أو أحد الغزباء . وكان عندما ينام يحلم أحلاماً لذيدة تتكرر كل ليلة بتنقيح خفيف أو بلا تنقيح ، هي أنه يعود طفلاً يلعب مع جدته في الغرفة المقابلة ، وكانت تحمله على ظهرها أو تطرحه وتدغدغه حتى يكاد يموت من الضحك . وتطورت الأحلام عنده بعد ذلك فكان يرى نفسه وهو على جواد مذهب السرج واللجام ، ثم يطير الجواد به فوق القاهرة ، وجدته تنظر إليه ، وهو يقطع الجو . وفي الوقت الذي كان يستمتع الثبان في سنه بصوات الزرق في السهر ومعاكسة الفتيات بكلمات جنسية ، أو كانوا يروحون عن سأمهم برؤية القصص السينمائية أو قراءة القصص الغرامية ، ويخرجون إلى الحقول حول القاهرة أو يركبون البسكليت أو يقضون شهراً على شواطئ الرمل وهم يغازلون البنات ويسبحون على الأمواج — في هذا الوقت كان زكى لا يعرف غير المذاكرة . المذاكرة . المذاكرة . وكان هو ينجح في المدرسة . وكانوا هم يفشلون . ولكنهم كانوا على صحة نفسية وعلى معارف دينوية تفوق ألف مرة معارفه المدرسية ، لأنهم كانوا يستطلعون هذه الدنيا ويفطنون إلى كثير من

أسرارها التي خفيت وغابت عن زكى . كانوا ينامون ولا يحملون ، أو يحملون بما ينفع من اقتحامات أو مصادفات محبة بالفتاة التي تعقبوها وصدت عنهم بعد كلمة قاسية ما كان ألذها وقمأ على نفوسهم . وبالسباحة . وبالنساق على البسكليت ، وبالقصة التي قرأوها أو رأوها على الشاشة السينائية وبالبذلة الجديدة وبالفسحة الجميلة في الريف

وكان بعضهم يمارس العادة السرية ولكن في تحفظ ، مرة أو مرتين كل عشرة أيام . بل لقد قص أحدهم أنه منذ عرف فتاته التي يرافقها وينفق عليها كف عن هذه العادة لقدارتها وبعدها عن الشهامة . وكان بعضهم يدخن ، كما أن بعضهم قد عرف الخمر ، ولكنهم كفوا عن التدخين والخمر لأن المنع الأخرى كانت أجمل وأروع . كانت صحتهم النفسية عالية ، صحة الشباب وغرائزه ، صحة النشاط الجندى السليم والذهنى السليم . وكانت الدنيا جميلة في أعينهم تحوى جمال النفق ، وجمال الشعر ، وجمال القصة ، كما تحوى جمال الفتيات ، وزهوة البذلة الجديدة ومرح السباحة في الماء ولذة الحديث بالنكات المشتبهات مع الإخوان . وكانوا يستمتعون بالوجبة الدسمة والحلوى المريثة . جسم سليم ونفس سليمة وكانوا يتأخرون في دروسهم أو قد يساعدهم الحظ فلا يتأخرون . ولكن المدرسة لم تكن قط عذابهم كما كانت عند زكى الذي سبقهم لأنه كان يكب على دروسه ولا يعرف أية متعة يفرج بها عن صعوباته غير أحلام اليقظة وأحلام النوم . ولذلك كانت نفسه مريضة

وقد لحظت أمه أعراضاً فيه فتحت بصيرتها ، بصيرة الأم ، إلى أنه ليس على ما يجب أن يكون . فإنه في الصباح لم يكن يترك الفراش .

بل كان يبق منسطحاً وعيناه إلى السقف . ولم يكن ينهض لطعام إذا دعى .
فإذا أفطر عاد إلى الفراش وعيناه إلى السقف . فإذا دعى إلى الغداء
نهض وتغذى وهو سارح الفكر لا يأكل شيئاً غير الطبق الذى أمامه ،
ثم يعود إلى السرير فينسطح وعيناه إلى السقف
وكانت أمه تتأمله وتحاول أن تجره إلى الحديث فلم يكن ينظر إليها
وهى تحدته . وانتهت أمه إلى القول أن هذه الحال ليست طبيعية

أى أيتها الأم المسكينة أنك لم تكونى تدرين أنه كان ينتهك نفسه
فى اليوم ، وهو حبيس غرفته ، نحو سبع أو عشر مرات . ولم تكونى
تدرين أنك أنت وزوجك السبب فى هذا ، بحبسه ومنعه من أى نشاط
إلا المذاكرة . ذاكر .. ذاكر .. ذاكر . وأنه لم يعرف أساليب التفرج
الأخرى التى كان يمارسها الشبان ، والصدقة والمزاملة مع اخوانه ،
والفسحة المارحة فى شارع فؤاد ، والاصطياف الجميل على الشواطىء .
وقراءة المجلات والجرائد . لقد منعناه من كل ذلك فانهجز فى الحجرة
وأنطوى على نفسه يأكلها ويفنيها

وتماذى زكى فى غياب الذهن والانسطاح على الفراش والاستسلام
للأحلام . وقد أصبحت أحلام النوم عن جدته ، ولعبه ، وحديثه
معه ، والجواريذ الذى يركبه فوق السحاب فى القاهرة ، أحلام يقظته
أو ما كان يظن أنها يقظته ، لأنه لم يعد يقظاً إذ كان فى غيبوبة ذهنية
دائمة

ورويداً زويداً أصبحت ، لا ، أو الصمت الذى يدل على معناها

شعاره ومفتاح وجوده في الدنيا . قم كل : لا . قم البس ملابسك .
لا . قم أغسل وجهك : لا . أو صمت تام لا يرد ولا ينبس بكلمة .
حياة مجبوسة . غواطف مكظومة . إحصار الذهن في المذاكرة الكريمة .
انتقاء التفريج أو التنفيس . ماذا يفعل إزاء هذا كله ؟

يفر من هذا الواقع المتعب المضجر المؤلم إلى الخيال ، وأى خيال .
عنده أجل من ذكرى جدته ولعبها وحديثها معه . لقد عاد زكى فقي
في الرابعة يعيش ليتحدث فقط إلى جدته ويبعد عنه رؤية الدروس والام
والآب القاسين . والواقع أن أمه كانت تقف أمامه وتتضرع إليه كي
ينفض ويأكل ، فلا يرى وجهها ولا يسمع كلامها . وهو سعيد بهذا
الذي فيه . بخيالاته . ولكنه لم يعد إنساناً ، إذ هو إستحال إلى شبح
إنسان فقط ، يجترخواطره وأحلامه عن السنوات الخمس التي قضاها مع
جدته قبل أن يبدأ البرنامج الذي وضعه له أبوه كي يدرس ويذهب إلى
الجامعة ويخرج منها ويصبح وزيراً أو وكيل وزارة

وجاء الطبيب فطلب نقله إلى مستشفى الأمراض العقلية ، إلى المارستان .
وضعق الوالدان بهذا القرار . ورفضت الأسرة نقل زكى إلى المستشفى .
وتلقت الأم يابنها وأحضنته وهي تلهث من الوله . ووقف الآب وقد
جدد عقله وعميت بصيرته لا يدري علة كل هذا الذي حدث

وقال الطبيب : هذا المرض هو الشيزوفرينيا ، هو جنون يصيب
الشيان المضغوطين الذين لم يطبقوا الحياة الواقعة ففروا منها إلى الخيالات
والأحلام . هو الآن يحلم ويتخيل . وهناك أمل بالشفاء ، ولكنه أمل
ضعيف . وفي المستشفى مرضى مضى عليهم خمسون سنة بلا شفاء
وتركهم الطبيب بعد أن أفهم الابوين أن زكى في . نعيم مقيم . يلتذ
بخيالاته وتأملاته

سيكولوجية الشيخوخة

النصيحة العامة المألوفة للشباب هي أن يأخذوا بحكمة الشيخوخة في التبرص والاعتدال والتأمل والبعد عن الرعونة والمغامرة . وكل هذه بلا شك تعد فضائل في بعض الأحوال . ولكنها ليست كذلك إذا أخذنا بحرفيتها في كل الأحوال . فإن هناك من المواقف ما يحتاج إلى المغامرة التي تشبه الرعونة . ولتضرب مثلاً بالثورات التي لا يتسع الوقت فيها للاعتدال المسرف أو التبرص البعيد . وكثير مما نعزوه إلى الشيخوخة من الفضائل إنما يشتق في النهاية من الركود والجنون ، كما أن كثيراً من رعونة الشباب أو مغامراته إنما يشتق في النهاية أيضاً من النشاط والشجاعة

وعلى كل حال يبدو لي كأننا قد أكثرنا من النصح للشباب بالأخذ بحكمة الشيخوخة ، وقد آن لنا أن ننصح للشيخوخة بأن يأخذوا بحكمة الشباب . وأعظم ما يبرر لنا هذا الانقلاب أن الشيخوخة السعداء هم الذين يحتفظون بمقدار كبير من نشاطهم وشبابهم ، وإن يكن نشاط الذهن وشباب النفس فقط . في حين أن الذين يكابدون أحزان الشيخوخة وأعباءها إنما هم الذين قد شاخت نفوسهم وركد نشاطهم

ولكن الذى يجب أن نذكره أن النفس والذهن ، كلاهما يحتاج إلى نشاط الجسم وحيوية الأعضاء ، إذ ليس مفر من أن تركد نفوسنا إذا ركدت أجسامنا

قد يقال أننا ، فى الشيخوخة ، نستطيع أن ننهنا بالحياة التأملية ، نقرأ ونفكر ونتفرج . وليس شك أن هذا كله حسن . فإن المداومة على الاهتمام بالصحيفة اليومية فى سن الثمانين أو التسعين تبعث النشاط فى الذهن . وكذلك الشأن فى القراءة أى الدراسة . ولكن حياة التأمل هى فى النهاية حياة الركود . متى ركدنا بالجسم ركدنا أيضاً بالذهن

وهنا حكمة الشباب التى يجب أن يأخذ بها الشيوخ ، وضرورة النشاط بحيث تبقى أعضاء الجسم فى حركة العمل التى تتطلب السعى على القديين والذهاب والآيات وتحمل المسئوليات اليومية أمام المكتب أو غير ذلك من ضروب النشاط فى النفس والذهن ، فتبقى الأهداف القديمة والمطامع السالفة والعادات المألوفة قبل الستين والتمسين من العمر ماثلة حية غير معطلة

إن صاحب المتجر أو المكشأ أو المصنع الذى يكف عن الذهاب إلى مقر عمله فى الصباح ، عندما يظن أنه قد بلغ سن الشيخوخة ، يشرع فعلاً فى الشيخوخة ، ويبدأ فى حياة التفرج والتأمل الراكدين بدلاً من حياة العمل والتفكير النشيطين . وهو يكاد ينقطع عن الدنيا بأهدافه وأحاساسه . ومثل هذه الحال تملأ نفسه غمًا وأسفاً ، وهى جدية بأن تنتهى به إلى ألوان مختلفة من أمراض النفس . وأولها أن يحتر ما ضيه اجتراراً فيذكر

ويعيد الذكرى بما حدث له قبل نصف قرن . وقد يذكر خصوماته
القديمة فيبتس بها ويتعس

وكثيراً ما ترى هؤلاء الشيوخ وقد آثروا العزلة والانفراد ، يكرهون
الاجتماع والزيارات ، وعندئذ ينكشفون على أنفسهم ويحدثون أنفسهم
بكلمات مبهوسة أو مجبورة . ونحن نعزو ذلك فيهم إلى خرف الشيخوخة .
وما بهم من خرف سوى أنهم معطلون جسماً فأصبحوا معطلون ذهنياً
إن للعمل اليومي ، في مواعيده ، من طاقة واستعداد ، ودراسة
ومسؤولية ، نظاماً يحمل رجل السبعين والثمانين على أن يأخذ في حياته
نظام آخر ينأى به إلى الاستهتار في الطعام والشراب . فهو يأكل بقدر ،
وهو يدخن أو يشرب القهوة أو الشاي بقدر . يلحظ في كل ذلك مصلحة
عمله وقدرته . وهذا بخلاف الشيخ الذي عطل عن العمل فانه يستهتر
في طعامه وشرابه ، إذ ليس عنده من الواجبات ما يحمله مسؤوليات
تحته على الاحتفاظ بصحته ويقظة ذهنه وسلامة عضلاته

ومن هنا سرعة الانهيار الذي نجده في موظفي الحكومة الذين
يحالون على المعاش في سن الستين . فإن هذه السن تعد في أيامنا من
أطوار الشباب التي تنتظر فيها الصحة والنشاط . ولكن الموظف الذي
وجد نفسه فجأة قد انقطع عن السعي كل صباح إلى مكتبه . وأنه لا يستقبل
من يومه عند يقظته سوى الركود أو القعود على المقهى للتعطى والتشاوب
وحديث القيل والقال مع المعارف والأصدقاء ، أو « قتل » الوقت بالعب
الحظ الخفيفة ، هذا الموظف لن تمضي عليه شهور بل أيام حتى يحس
بداية حياته وأنه « زائد » على المجتمع يستهلك ولا ينتج . فتنهار

نفسه ثم ينهار جسمه

وأنا أنصح لموظفى الحكومة لهذا السبب بأن يستعدوا لمعاشهم بأن يتعلموا أو يمارسوا هواية ما منذ سن الأربعين . حتى إذا بلغوا الستين وجدوا فيها عوضاً عن وظيفتهم السابقة ، فيبقى كل منهم على نشاطه السابق له أهداف يحيا لها وبها

يجب ألا تعنى كلمة معاش بماتاً ، إذ هى تحمل معنى العيش أى البقاء . ولا يقاء بغير عمل وسعى وحركة واشتباك فى شئون المجتمع والانسانية والسياسة والانتاج . أى يجب على الموظف أن يهتم بالدنيا والناس والأشياء وأن تعدد اهتماماته . ويكون منها اهتمام مفرد هو هوايته الخاصة التى يمارسها لا للتسلية ولكن للارتقاء والانتاج

يجب على الموظف ألا يرضى بأن يكون متفرجاً فى الدنيا فقط بعد أن يبلغ سن المعاش

ومع أنى أعتقد أن هناك تسعين فى المائة على الأقل من الموظفين الحكوميين يمكنهم أن ينهضوا بأعمالهم ويؤدوا واجباتهم إلى سن السبعين بل أكثر ، فانى لا أستطيع أن أقول بهذا الرأى . لأن شبابنا فى حاجة الى الوظائف الحكومية ، إذ أن أعمالنا الحرة لا تستوعبهم . والأعمال الحرة هى الصناعة والتجارة وقد حرمانها إلى وقت قريب : وهناك ميزة للعمل الحر على الحكومى . لأن العامل الحر ، سواء أكان موظفاً أم مالكا ، يمكنه أن يبقى عاملاً إلى ما بعد الستين . ولذلك يحتفظ بصحته النفسية والجسمية لأن تنظيم عمله يؤدى ، كما قلت ، إلى تنظيم حياته . وهو يبلغ الشيخوخة دون أن يشيخ . أو هو ، بكلمة

أخرى ، شيخ ولكنه ليس شائخاً
ومع التناقض في هذا التعبير نستطيع أن نقول أننا وجدنا في
اختباراتنا شباناً في السبعين والثمانين ، بل أحياناً في التسعين ، ينهضون
في الصباح المبكر ويؤدون الأعمال التي تحتاج إلى قوة العضلات وصحة
الذهن . وهم في العادة نحفاء . بل انى لا أذكر أنى رأيت رجلاً سميناً
قد بلغ التسعين

ومن أعظم الأمثلة الحية على شباب الشيوخ الأستاذ أحمد لطفي
السيد . فانه يوشك على التسعين ومع ذلك يحتفظ بنشاط ذهنه ويؤدى
عمله الحكومى ، يقصد إليه كل صباح ويعود منه بعد الظهر لا يبدو عليه
أى عناء أو إرهاق . وهو من حيث الجسم لا تكاد أعضاؤه تتماكس
ولكن نفسه قوية عضلية . وهى تشع صحتها على الجسم . وإنى أعرفه منذ
أكثر من خمس وأربعين سنة ، ولا أذكر أنه سمن قط أو إستكرش
لإذ هو كان على الدوام نحيفاً إلى حد الهزال . وقد ساعدته هذه النحافة
على استبقاء شبابه ، كما أن عاداته في العيش معتدلة بعيدة عن الإسراف
الذى كثيراً ما يرهق الصحة الجسمية ، ولكن نحافة جسمه وأعتدال
عاداته ليسا شيئاً إلى جنب نشاطه الذهنى وأنه يعمل كل يوم عملاً
يحملة على نظام الحركة والتفكير في المسئوليات . وهنا الحياة الحية
ولى صديق آخر في منتصف العقد التاسع من عمره هو الأستاذ
عزيز خانكى . فانه يقصد إلى مكتبه كل يوم ويؤدى أعماله في مواعيدها .
وهو نشيط الذهن لأنه نشيط الجسم ، يحضر في المحاكم ويدرس القضايا

ويؤلف الكتب ويقرأ ويناقش ويشتبك في شئون المجتمع . هو شاب
لم يشخ

ومع كل هذا الذي ذكرت عن ضرورة النشاط الجسمي والذهني
وضرورة القيام بعمل يستتبع المسؤوليات ويعين المواعيد ، أحب أن
أنبه إلى أن إيقاع الشيخوخة يجب أن يكون أبطأ من إيقاع الشباب .
فإذا كان الشباب يستطيع الاستغناء عن راحة القيلولة مثلاً نحو ساعة
بعد الظهر فإن الشيخ يحتاج إلى هذه الراحة أكبر الحاجة
ولكن الراحة يجب أن تكون ساعة واحدة في النهار وليست ٢٤
ساعة في اليوم

سيكلوجية الشيخوخة أيضاً

ظهر في لندن كتاب جديد بعنوان « كيف نستقبل وتبدأ حياتك »
للنولف اليا نور بروكيث

وأسم الكتاب يحمل دلالة جديدة لعصرنا هي أن الناس كانوا ، قبل
محو نصف أو ثلث قرن ، يستقبلون من أعمالهم أو وظائفهم عندما
يبلغون الستين أو الخامسة والستين . وذلك لأنهم كانوا يحسون ضعفاً
أو عجزاً ينقص كفاءتهم للعمل أو تأديتهم للوظيفة . وكانوا يكفون
عندئذ عن العمل أو يتركون الوظيفة وهم على إحساس بأنهم قد شرعوا
بتهيأون للموت الذي قد يدركهم بعد خمس أو ست سنوات

وكان هذا الاحساس صادقاً ينهض على المشاهدة ، إذ كان معظم
الناس يموتون قبل السبعين ، هذه السن التي عدتها التوراة أقصى ما يمكن
أن يطمح إليه الرجل السعيد في هذه الدنيا كما قال سليمان الحكيم
وعلى هذا الأساس سنت جميع الحكومات المتعدنة ، ونعني
حكومات الأمم الصناعية وحدها ، قوانين تنص على أن كل من يبلغ
سن الستين أو الخامسة والستين له الحق في الحصول على معاش طيلة

حياته يرجع بين سبعة وعشرة جنيهات في الشهر سواء أكان رجلاً أم امرأة . وزادت بعض الحكومات مقدار هذه المعاشات حتى أنها تبلغ نحو أربعين أو خمسين جنيهاً في الشهر في بعض الولايات المتحدة أو بعض الحكومات الأخرى مثل حكومات استراليا أو زيلندا الجديدة أو كندا

يحصل الرجل أو المرأة منذ سن الستين أو الخامسة والستين على معاش شهري إلى أن يموت في الثمانين أو التسعين أو المائة دون أن يطالب بأى عمل . ولكن يجب أن نذكر أن هذا يحدث فقط عند الأسم التي اعتمدت على العلم والصناعة والاختراع والابتكار واقتحام المستقبل، الأسم الثرية الصناعية
ولكن هنا المشكلة

فإن إنجلترا شرعت تنفذ معاشات الشيخوخة منذ سنة ١٩٠٩ حين كان الناس يتبدلون في التعمير ويموتون حوالى السبعين ، أما الآن فإنهم يسرفون في التعمير ، ويصلون إلى الثمانين والتسعين والمائة بلا أقل حياء من وزير المالية

فلم يكن ينفق من ميزانية الدولة على هذه المعاشات في ١٩٠٩ سوى نحو ٣٠ مليون جنيه . أما الآن فإن المسنين يكلفونها مئات الملايين من الجنيهات . ثم هم في ازدياد ، لأن متوسط الأعمار كان حوالى عام ١٩٢٠ لا يزيد على ٤٠ أو ٥٠ سنة ، أما الآن فقد ارتفع في إنجلترا إلى ٦٨ للرجل و ٧٠ للمرأة

لماذا يعيشون ويبلغون من العمر أربطه ؟

ومن أين تأتي الحكومة الانجليزية ، وغيرها من حكومات الأمم
الصناعية العلية الثرية ، بالمال كي تقدمه هدية آخر كل شهر للتوئين
من المستنين ومن دونهم ومن فوقهم عن تجاوزوا السنين ؟
ما أغرب هذه المفارقة : أوروبا وأمريكا تعانيان مشكلة
للصحة والحياة الطويلة ، وآسيا وأفريقيا تعانيان مشكلة المرض والحياة
القصيرة

لأنها لمقارنة بل مفارقة محزنة تلك التي نراها في غيلتنا بشأن المستنين
في مصر والمستنين في إنجلترا أو أى قطر صناعي آخر
إن الموظف المصري يستقيل من وظيفته وكأنه قد استقال من الحياة ،
فهو يمضى مابق من السنوات القليلة من عمره وهو في محبط . يقعد على
المقهى قبل الظهر ، ويشرب عشرات الفناجين من القهوة ، ويدخن في
المراف ، ويتحدث مع أصدقائه عن ذكرياته قبل ٤٠ أو ٥٠ سنة كأنه
هو نفسه قد أصبح جزءاً من الماضي . وهو لا يشترك في أحاديث
السياسة الحاضرة لأنها تنطوى على سياسة المستقبل الذي يحس أنه غريب
عنه . وهو ينام بعد الظهر فإذا أفاق ففكر في المقهى ، وقد يشرب الحمر
ويسرف فيها لأنها تنسيه حاضره التعس
رجل المعاش تعرفه كلنا في مصر

هو سمين مترهل مستكرش سىء العناية بملابسه ، مشعث الشعر قد
تثبتت أعجاز لحينه . وهو يشكو
بشكو الرومزم ، والكليتين ، والإمساك ، والقلب
ويشكو سأمه من الحياة كأنه ليس له مكان فيها

ويشكو سوء المعاملة التي يلقيها من زوجته وأبنائه . إنه زائد
غير نافع

ويشكو اسرافه في التدخين واسرافه في الطعام وعجزه عن الاعتدال
ويشكو استهتار الشباب والفتيات وأنهم لم يعودوا يبالون بالتقاليد
حتى أن إحدى الفتيات في أسرته قد صرحت بأنها لن تتزوج الا من
شاب تحبه . أما هو ففي أيام شبابه لم يكن يعرف كلمة الحب ، وقد
اختارت أمه له زوجته . وهو حين ينهض من المقهى ويذهب الى منزله
يسير مطأطأ كأنه يمضى الى جنازته وقد تلفف بكفنه

هو ميت قد تأخر دفنه ، ولذلك لا يستحق معاشاً ، إذ هو يخدعنا
بأنه حتى مع أنه ليس كذلك

ولكن مع هذه الكلمات والأفكار القاسية نحس رحمة نحوه . ذلك
أن أسلوب حياته الذي عاش به في شبابه قد لزمه بعد ذلك في شيخوخته ،
وكأن العمل الذي ينتجه أو الوظيفة التي يؤديها يخفيان عنه وعنا تهاهته .
ولكنها كانا يشغلانه فيجد الاهتمام والالتذاذ في الحياة
أما الآن ، بعد زوال العمل والوظيفة ، فإنه أمامنا ، تافه أمام نفسه .
وهذه هي مأساته

قارن رجل المعاش هذا المصرى برجل المعاش الإنجليزي مثلاً
فإن هذا الثاني قد اتخذ أسلوباً للحياة أيام شبابه لزمه بعد ذلك
مدة شيخوخته ، فوجد في سن السبعين والثمانين اهتمامات والتذادات
ورياضات لا يجدها زميله في مصر

فهو أيام شبابه تعود الرياضة . ولذلك هو يلعب التنس بقوة العادة
وهو في السبعين
وفي أيام شبابه اعتاد المطالعة وشراء الكتب والاهتمام بالآراء
ومناقشة الأفكار . ولذلك هو في الشيخوخة ، بقوة العادة أيضاً ، يمارس
كل هذه الأشياء في لذة ونشاط
وفي شبابه كان يقرأ الصحف ويعرض لبرامج الأحزاب ويناقش
السياسة الداخلية والخارجية . ولذلك هو في شيخوخته يمارس السياسة
ويشارك في الأحزاب .. وفق ما تعود أيام شبابه
كل هذه الشئون تملأ فراغه وتغفل وقته واهتمامه . ولذلك هو
تستبق شبابه . فالشيخ الإنجليزي في الثمانين لا يركد ولا يستسلم للكسل
لأن شخصيته أيام شبابه هي نفس شخصيته أيام شيخوخته ، بموافرها
ومطامعها وعاداتها
إذا كانت عاداتنا في الشباب سيئة فإنها سوف تكون أسوأ في
الشيخوخة . ومتاعب المسنين عندنا إنما ترجع في الأغلب إلى أن
شخصياتهم التي تكونت في شباهم كانت ولا تزال دون الوفاء بمطالبهم
النفسية والروحية
هناك وحدة سيكولوجية بين الشباب والشيخوخة
أرجو القاري . ألا يفهم بما قلت أني أعلل جميع عاهات الشيخوخة
عندنا ، سواء أ كانت نفسية أم ذهنية أم جسمية ، بأسلوب الحياة الذي
يختاره كل منا
ذلك أن هناك ظروفاً مدنية وثقافية واجتماعية تتعسف في شيخوختنا

كما أن ظروفًا أخرى مما تضارع ظروفنا تسعدنا الأوروبيين والأمريكيين
فإننا في مصر مثلاً نمرض أكثر من الأوروبيين ، لأن مدتنا
قدرة ، ولأن طرقنا في طهو الطعام سيئة . ولأننا فقراء لا نحصل على
مقدار البروتين الذى نحتاج إليه في طعامنا

ومرجع ذلك كله إلى الثراء والتمدن ، ثم إلى الهندسة التى جعلت
للمدن نظيفة تجرى فيها شرايين المياه المطهرة . ثم إلى الطعام الرافى الذى
نعرفه عند الانجليز أو الأمريكيين حين يأكلون اللحم ثلاث مرات
فى اليوم

فقرنا يتعس شيخوختنا . وليس الشيخ المسن مسئولاً عن هذا الفقر ،
ولنما تعود المسئولية هنا إلى أولئك المستعمرين والمستبدين الذين حتموا
علينا الفقر بأن حظروا علينا الصناعة ونهبوا كنوزنا الزراعية والمعدنية
وكذلك تقدم الطب فى أوروبا حتى كاد يشفى جميع الأمراض
الميكروبية . وأوشك على أن يشفى أيضاً جميع الأمراض الانحلالية .
فطالت الأعمار واستبقت الشيخوخة مقداراً كبيراً من صحة الشباب
وتشاطه

تأمل أيها القارئ كيف اختلفنا
نحن نعانى فى مصر مشكلة المرض والأعمار القصيرة
وهم يعانون فى أوروبا وأمريكا مشكلة الصحة والأعمار الطويلة
ذلك أنهم يؤدون معاشاً لكل من تجاوز الستين أو الخامسة
والستين

وقد كانوا يؤدون هذا المعاش فى إنجلترا لنحو خمسة ملايين مسن

ولكن الصحة تتقدم . ولذلك لن تمضى سنوات حتى يبلغ عدد هؤلاء
 الصين عشرة ملايين يحتاجون إلى المعاش
 وقل مثل هذا في سائر الأقطار المتمدنة
 أليست هنا مشكلة ؟
 بهذا هذه المشكلة نراها في بلادنا . نعم . ولكن ليس الآن ونحن في
 قفنا الحاضر ، إذ لن تستطيع أن تؤدي المعاشات السخية للتوطين
 ومن فوقهم ومن دونهم

* * *

قلت إننا لن نساعد بالشيخوخة إلا عن طريقين
 الطريق الأول أن نصبح أمة عصرية صناعية متمدنة ، فيتوافر
 الرأى ، ونحصل به على الحسن أو الأحسن في الطعام والسكن والهندسة
 المدنية . لأن المدينة النظيفة لا تقل قيمتها في الصحة العامة عن
 المسكن النظيف ، بل لعلها تزيد . وهذا كله من واجبات الدولة والمجتمع
 والطريق الثاني هو الواجب الشخصي ، أى ما يقوم به الرجل
 أو المرأة نحو نفسه حتى يعمر العمر الطويل
 ولكن العمر الطويل لا يعنى أن تزيد الحياة سنين . وإنما هو يعنى
 أن تزيد السنين حياة . إذ ليس هناك سوى العذاب والهوان فى أن
 نمضى شيخوختنا مع الشلل أو الروماتزم أو الأرق أو العمى أو الصمم
 وأمراض الشيخوخة ليست ميكروبية وإنما هى انحلالية . حين
 نعجز الكليتان أو القلب أو الكبد أو الشرايين عن التأدية الحسنة
 لأعمالها . ومن شأن هذه الأمراض الانحلالية أنها تتسلل صامتة
 خفية . وهى فى كل حالة ثمرة أو ثمرات لعادات سيئة فى العيش ، مثل النهم

إلى الطعام أو الإفراط في الجهد إلى حد الإرهاق أو السهر الطويل
أو التعرض للبرد أو نحو ذلك

ونحن بالطبع سنموت آخر العمر بأحد هذه الأسباب أو بنيرها،
فليست هناك وقاية تامة من الانهيار الأخير ثم الموت . ولكن يجب
ألا تطول مدة الانهيار كما يجب أن نصل إلى التسعين أو المائة ونحن
في صحة وشباب

وأحيانا أتأمل الصحة والمرض في الشيخوخة فأنتهي إلى الإحساس
بأن صحة المسنين هي حكمة، أى أنهم كانوا حكماء في عيشهم أيام شبابهم
وكهولتهم . فأتجهوا اتجاهات معينة في الشباب صائت صحتهم ثم
لزمته هذه الاتجاهات في الكهولة والشيخوخة فصائتهم بعد السبعين
والثمانين

وأعظم ما يسعدنا في الشيخوخة أن نتعلم في شبابنا كيف نشغل
فراغنا بغير العمل الذي نرتزق منه ، أى بهواية معينة . وقد تكون هذه
الهواية هي نفسها العمل الذي نرتزق منه . وهنا السعادة العظمى

حياتهم تافهة

من أعظم الدراسات التي حفلت بها حياتي واتسع بها وجداني صناعة التطور . فإنها أكبرت في نظري من شأن الإنسان وجعلتني أنظر إلى تاريخه الماضي وأستطلع في ضوئه تاريخه المستقبل وأمتلى بذلك إحساساً بعظمته وأتفأل بتطوره القادم . وأكثرت من هذا ، أن التطور جعلني أحس خطورة حياتي وقيمتها العظيمة ، وأقارن بين هذه الحضارة التي إختارناها منذ خمس عشرة ألف سنة وبين حياة الغابة حين كنا أحراراً تصيد السمك أو تقتل الحيوان أو تطلع الجذور . ونجول في انحاء العالم ، نصطدم بالأسد أو الأفاعي أو سائر الوحوش ونعيش في مخاطر متوالية تذكرنا عقولنا وتبعد من عيونتنا كنا وحوشاً أحراراً على وجدان بالأخطار وعلى مسرات متوالية بالانتصار عليها أو بتخطيها . أما الآن فنحن ، بعد اكتشاف الزراعة على النيل منذ عشرة آلاف سنة ، قد استسلمنا إلى نظام يجعلنا آمنين من الفزع . نحصل على اختباراتنا من الكتب بدلاً من الطبيعة . بل

إننا بالزراعة قد أحلنا الطبيعة إلى حقول مالية تنتج القمح والقطن ،
كأننا نحاسبها بالقرش والمليم

ولكنى حين أتأمل حياة بعض الناس في هذه الحضارة أجد حقارة
أو تفاهة تجعلنى أحس أن الغاية القديمة بكل ما فيها من أخطار كانت
أشرف وأدعى إلى نشاط الفكر والجسم من حالهم الحاضرة . وأن
الحضارة عندهم ليست كسباً وإنما هى خسارة وخسة وضعة

لقد قلت إننا فى الحضارة نحصل على اختباراتنا من الكتب . ولكن
هؤلاء القارئى للكتب هم القسلة ، أما الكثرة فيعيشون بلا كتب .
وبعضهم وجدانهم بحيث لا يتجاوز أحياناً البيت الذى يسكنونه أو الشارع
الذى يسرون عليه من المنزل إلى المكتب

عرفت قى ١٩٢٠ بواباً لمبنى كبير به نحو ثمانية مساكن ، وكان
وقتئذ شاباً لا يتجاوز الخامسة والعشرين . وقد قضى إلى الآن أكثر
من ثلاثين سنة وهو على باب هذا المبنى من الصباح حتى المساء ، لا يزيد
عمله اليومى على كنس السلم وعلى إجابة الأغراب من السكان ، وهل هذا
السباكن قد خرج أو لا يزال بالسكن . وكلما مررت به أقول لنفسى
ألف مليون سنة ؟

أجل . إن هذا البواب قد احتاج إلى ألف مليون سنة حتى أخرجه
الطبيعة إنساناً له رأس يحتوى تسعة آلاف مليون خلية للتفكير . ولكنها
جميعها تقريباً معطلة . مع أنها كان يمكن أن تحمل مشكلات اينشتين
أو تكشف عن دواء جديد للسرطان أو تهتدى إلى تأليف جسد
للانحلال والتكون فى المادة

يعيش هذا البواب حياة بلا قصد ، ليس فيها برنامج . وهو من حيث الوجود البشرى من يده إلى فمه . لا يعرف أنه في أفريقيا ، وأن القارات خمس ، وأن الشمس هي التي تجعل النباتات تنمو وتقيت القاهرة بالبول كل يوم . وقد كنت أظن أن أولف قصة عن حياة هذا البواب . قصة حقيقية ، كيف يقضى يومه ثم كيف ينام في ليله وما هي أحلامه وعدد الكلمات التي يعرفها ويؤدى بها أفكاره . وظنى أنها لا تزيد على مائتي كلمة . وهذه القصة ستكون بالطبع عملة غاية الملل عند القراء ، ولكن إذا كان سرد القصة مملاً فكيف تكون العيشة الأصلية لهذا البواب ، وأى ملل يجب أن تحتوى ؟

ولو أن هذا البواب كان يعيش في الغابة ، لكان يظفر من الاقتحافات والانتصارات والآلام والاحزان بما كان يملأ حياته ويجعله يعيش ناشطاً متحمساً كأنه على مسرح يمثل درامة حافلة بالأحداث والعبر . وكان ذكاؤه يحتد وعضلاته تشدد . ولكنه على باب المبنى قد ترهل جسماً وعقلاً

وقد تفهمت حياته حتى لا أكاد أصدق أن الطبيعة قد احتاجت إلى ألف مليون سنة لتخرجها إنساناً سوياً

وليست العبرة بفقره لأنه ليس فقيراً ، بل الأغلب أن آلافاً من العمال في المصانع والمكاتب أفقر منه . ولكنهم أوسع وجداناً وأعمق فهماً لهذه الدنيا منه . فإنهم يختلطون بزملائهم أو بكبرائهم ، ويقرأون أكاذيب الصحافة وحقائقها ، ويتحدثون عن الحرب القادمة ، ويسهرون على القهوة ، ويشربون الشاي مع إخوانهم ، ويلعنون التجار الجشعين ، ويتشاكرون

عن الغلاء ، وأحياناً يسكرون ويفرجون
 أما هذا البواب فانتا قد أحلتنا على باب المبنى إلى حيوان أو جماد .
 وهو قانع بحياته ، ولكن هذه القناعة هى إجرام فى حق البشر . فى
 حق التطور . لأن حياته تأفة ، حياته بلقع
 وقبل نحو ثلاثين سنة ، قبل أن يتم استعمال الطاقة الكهربائية ،
 كانت مناجم الفحم فى إنجلترا تستخدم الجياد فى نقل الفحم داخل المنجم .
 فكان الجواد يؤخذ من المرعى الأخضر ، حيث كان النسيم يداعب
 معرفته ، أو كانت الريح تهب عليه وتهزه فى غضب ، وكان يرى
 الشمس وظلام الليل ، ويمرعى ويمرح ويرفس فى حياة نشطة . وكان
 يرى الأنثى ويصبو إليها ، وكان يجر عربة من قرية إلى أخرى أو يمتطى
 صهوته صاحبه . ولكنه كان ، بعد أن ينزل إلى جوف المنجم ، يبقى
 فيه فى الظلام الدائم نحو عشرين سنة لا يرى نور الشمس . ولا يصعد على
 سطح الأرض إلا بعد أن يموت

وهذه حياة تبعث السخط والغضب على الذين كانوا السبب فى حبس
 الجواد . ولا يمكن مؤلفاً أن يقص على القارئ قصة هذا الجواد المسكين .
 إذ أن القصة يجب أن تسرد لنا حياة أو خيوات معينة . ولكن هذا
 الجواد يموت منذ نزوله فى المنجم ، إذ هو لا يحيا ، ولكنه يجر عربة
 الفحم فقط

ولكن أحياناً أتأمل حياة بعض الناس فأجد الفرق بينها وبين
 حياة هذا الجواد ليس عظيماً . فان مساحة المنجم الذى كان يعمل فيه
 هذا الجواد كانت نحو ميل مربع ، ومساحة الميدان الذى يعمل فيه
 بعض الناس لا تزيد على ثلاثين أو أربعين متراً مربعاً ، وهم هذا الاعتبار

موتى . ولو أردت أن أقص على القارى حياة واحد منهم لما قدرت .
لأنها حياة الأكل والنوم وكس البيت والعناية بالطفل
أجل هذه هي حياة بعض نساءنا في بعض قرانا في الصعيد . فقد
لقيت بعض إخواننا الصاعدة الذين كانوا يغفرون بالعرض والشرف
والطهارة ، وذلك لأنهم قد اعتادوا أن يجعلوا الزوجة تبقى بمنزلها منذ
عرسها إلى يوم وفاتها ، حتى لا ترى رجلا ولا يراها رجل . وزوجها
يحبها بهذا الحبس إلى مكانة دونها مكانة البواب الذى أشرت إليه . لأن
البواب يرى العابرين في الطريق ، وقد تقع حادثة أو ينشب شجار ، أو
يقعد إليه زائر أو يتحدث إلى ساكن . أما هذه المسكينة فتبقى طيلة
حياتها وهي محبوسة بالمنزل . وظنى أنها تتخجل بعد سنوات من هذا
الحبس ، ولا يبقى لها ذكريات تبحث على التفكير سوى أيام طفولتها
وبنوئها

وظنى أننا يجب أن نسن قانونا نجبر فيه الأزواج الحابسين لزوجاتهم
على أن يذنوا لهن بالخروج من المنزل مرة كل يوم
وإلى لاتساءل : هل احتاجت الطبيعة إلى ألف مليون سنة من
التطور كي تنتهى منه إلى حبس إنسان مدى حياة الزوجية بدعى
العرض والطهارة ؟

البواب ، وهذه الزوجة الصعيدية ، كلاهما يعيش حياة تافهة . حياة بلقع .
تتخفف التفاهة عندهما إلى حد العجز عن تأليف قصة عن أحدهما ، إذ ليس
لأحدهما اختبارات . لا أخطار ولا افتتاحات ولا أخطاء ولا إصابات ،
ولا سعادة ولا شقاء ، يمكن أن نرويها للقارى . هي حياة بلا عبرة

وبلا دلالة . هي حياة ملناة ، أو هي لنو حياة
ولذلك فكرت في أن أولف قصة عن حياة أخرى تافهة ، ولكنها
تحتوي شيئاً من الاختبارات ترفعها إلى مقام الاهتمام عند القارئ .
هي قصة شاب نشأ في عائلة ثرية في مصر ، فلم يتعلم لأنه كان مدلاً
أو هو تعلم القراءة ولكنه استغنى عنها ، فكان لا يشغل بها فراغاته .
ربحته كان كله فراغاً . فلما بلغ العشرين جعل يصيد الفتيات ويتزده
ويأبى في السيارات . ثم عرف بعد ذلك عاهات الترف ، حين تكثر
التقود أو تزيد على الحاجات ، فيجد اللذة في إنفاقها على التفاهات
ويعود هو بعد ذلك تافهاً يمارس التفاهة في جد وعرق
كان ينفق كل ليلة على الانغماسات الكحولية والجنسية نحو عشرين
جنيهاً ، أى كل دخله . وكان يعود إلى بيته بعد منتصف الليل ويستيقظ
في الصباح كي يتجول بسيارته أو يكالم صويحياته في التليفون . وحاولت
أمه أن تكفه فكان ينهرها ، ثم بعد ذلك صار يضربها حتى كفت
وماتت أمه وفرح بموتها كثيراً ، وأصبحت لياليه حمراء حافلة
بالانغماس . ولم يكن يجالس غير إخوان لهم مزاجه ولا يرتفعون على
مستواه . وكان حديثهم نكات وأحاديث عن الفتيات والراقصات
والهدايا التي اشتراها أحدهم لمحظيته الجديدة . وقد سمن لوفرة الطعام الذي كانه
يأكله وللراحة الدائمة التي كان يجدها . وكانت الأحداث تمر بمصر ،
مظاهرات ومفاوضات ووزارات ، ولكن كل ذلك لم يكن يصل إلى
وجدانه لأنه كان يعيش بحواسه دون عقله
وأخيراً تزوج راقصة كان عشقها طويلاً ، وحملته الراقصة على

أن يشتري لها من الأحجار اللامعة التافهة الغالية ما بلغت قيمته الألوف من الجنيهات . ثم أحبت غيره وأحبها هذا الغير . وذات يوم حمل هذا مسدساً وطلب إليه أن يطلقها ، واشتبك الاثنان . وأخيراً طلقها ثم أحب امرأة أخرى وتزوجها . وتوالى حوادث زواجه أو عشقه حتى هوت ثروته إلى ثلث ما كانت عليه . وكان قد بلغ الثلاثين ، فاقبل إلى زهد كان يعتقد أنه ديني . مع أن حقيقته أنه كان سيكلوجياً ، أى كان سأمًا من الانفاس الجنسى السابق ، كان صوماً بعد تخمة وهموداً بعد جهد

وقلت نفقاته فصار دخله يتوافر . وظن الناس فيه التدين ، بل ظن هو نفسه ذلك . فكان يشتري بما يتوافر من دخله أرضاً جديدة حتى استعاد ما فقده وزاد عليه

وكان قد حصل بثرائه على احترام الكثيرين . فتزوج ابنة أحد الكبراء الذى سأل عنه وعرف انغماساته السابقة واستقامته الحاضرة ، وأحب زوجته لتدينه

ولكنه منع كل ذلك كان معوج العقل . فلم يكن يعلم من معاني الدين إلا أنه الامتناع عن الخمر أو الزنا بالرافصات . وكان لذلك لا يجد حرجاً في مضايقة مجاوريه من المالكين الصغار حتى كان يضطرم إلى بيع أرضهم له . وقد باعوا له واقتروا

حياة تافهة حقاً . ولكنها تزيد على تافهة الحياة عند ذلك البواب بأنها كانت خادعة كما كانت ضارة . أودى بها المالكون الصغار حوله وجردوا من ممتلكاتهم القليلة . وكان صاحبنا مع ذلك سادراً يظن أنه تقي صالح

أوديب صدياً

هذا الفصل هو محضر ، أو محاضر تحقيق للمعالجة النفسية أحب أن أنقل النقط البارزة فيها ، كي يقف منها القارئ على أسلوب البحث وتحري الحقائق ووسائل العلاج كما يمارس كل ذلك المختصون في المعالجة النفسية . وأنا أنقله عن كتاب د حقول جديدة في المعالجة النفسية ، للدكتور دافيد لين من جامعة كولومبيا بالولايات المتحدة . ولست أهدف من ذلك إلى طرافة البحث وإنما إلى منفعة القارئ . في إستبصاره بالمرض النفسى ، كيف ينشأ خفياً متسللاً وكيف ننش عنه حتى نخرجه ونطرده . وأنا هنا ناقل محايد

موضوعنا هنا صبي بلغ الثالثة عشرة من عمره ، أى سن المراهقة كان إلى هذا السن متقدماً في دروسه بل متفوقاً . كما كان على أخلاق سوية ، مهذب اللفظة والإيماءة يحبه زملاؤه كما يحبه معلموه ، يواظب على استذكار دروسه ويلعب مع سائر التلاميذ ويؤانسهم ويلتذ الحياة المدرسية والحياة البيتية أيضاً . ولكن بعد هذه السن ، أى في الشهور التى أعقبت المراهقة وهو

لا يزال دون الرابعة عشرة ، تغيرت أخلاقه وساء سلوكه فتخلف في الدراسة ، وبعد أن كان مهذباً في كلماته وإيماءاته صار وقحاً تجرى على لسانه كلمات جنسية بذيئة بل فاحشة . كما كان يشير بيده لإشارات دنسة . وشكاه زملاؤه إلى ناظر المدرسة . وهدده هذا بالعقوبات الصارمة ، وتكررت الشكاوى وتكررت العقوبات . وأخيراً فكر الناظر في فصله من المدرسة . ولكنه قبل هذا القرار الحاسم ، رأى أن يستشير أمه ويبحث معها هذه الحال الجديدة التي طرأت على الصبي

وجاءت الأم . وجرى الحديث بينها وبين الناظر . وأنكرت هي اللغة البذيئة التي قيل لها إن ابنها يستعملها مع زملائه . إذ كانت هي لا تعرف من ابنها سوى أنه مهذب كامل . ولكنها إعترفت بتخلفه وأسفت على ذلك . وزعمت في النهاية أن ابنها إنما فسد ، لأنه اختلط بصبيان لم يتهدبوا ، وأنه تعلم منهم عاداته السيئة الجديدة

وهدد الناظر الأم بفصل ابنها من المدرسة . وهذا أخطر ما يمكن أن يقع بصبي في سن الثالثة عشرة . وتركته الأم وهي ترجوه أن يترث وأن يعطى ابنها فرصة أخرى لعله يعود إلى استقامته السابقة

وعادت الأم إلى بيتها . وعادت الرحمة إلى قلب الناظر وفكر الناظر في الفحص الطبي النفسي على الصبي . وهو يرجو أن يجد به علة يمكن أن تشفى فلا يحتاج إلى فصله

والعادة ، ولا تنساها هنا أيها القارئ ، أنه قبل الفحص الطبي النفسي عن المريض أياً كان يجب أن يفحص جسمه . لإذ لعل هناك مرضاً خفياً هو الذي أحدث التخلف عند هذا الصبي . فقد كان ذكياً ثم صار بليداً . فلماذا ؟

جاء الطبيب ففحص عن الخلق والأنف ، عن الزوائد واللوز ، فلم يجد شيئاً . وفحص عن عينيه فلم يجد شيئاً ، ثم فحص عن النقص الفيتاميني فلم يجد شيئاً . ثم فحص عن الدم فوجد هناك شبهة بأن الصبي يحمل في جسمه جراثيم المرض الزهري المعروف باسم السفلس . وسأل الطبيب واستقصى ، فعرف أن والد الصبي مات بالنقطة وهو في حوالي الأربعين من العمر . وأن أمه اجهضت مرتين أو ثلاثاً قبل وفاة زوجها بدون إرادتها . فرجح من هذه الظروف أن الأب كان مصاباً بالسفلس وأنه ترك جراثيم المرض في ابنه . وأن الزعزعة النفسية الأخيرة التي ظهرت في الصبي إنما تعود إلى بدايات من الشلل الدماغي الذي يبدو أحياناً في من يحملون جراثيم هذا المرض

وهنا وجد الناظر والمعلون أنهم ازاء بصيص من نور يجب أن يتقبوه إلى نهايته ، لعل فيه الحل لحالة الصبي . ولعلمهم يجدون الشفاء القريب . وطلبوا من أطباء آخرين الفحص عن الدم ولكن هذا الفحص الثاني أوضح لهم أن الصبي بريء من هذا المرض الزهري براءة تامة . وهنا نقض الجميع أيديهم من شبهة المرض الجسمي ، أي مرض السفلس

وعاد البحث إلى المرض النفسي

وجاء أولهم ، أول الأطباء النفسيين ، وبحث وفحص وانتهى إلى تقديم تقرير قال فيه أن التفسير لتخلف الصبي واضح حين أخذت البلادة مكان الذكاء عنده ، فقد كان الصبي إلى سن الثالثة عشرة قوى الذاكرة يفكر بذاكرته ، وكانت دروسه كلها إلى هذه السن

استذكراً فقط، فلما ارتقى إلى الصفوف العليا حيث الدروس تحتاج إلى التصور أكثر مما تحتاج إلى الاستدكار قصر وتخلف ، فالمسألة إذن طبيعية ، فإنه وصل إلى حدود ذكائه وليس له علاج ولكن هذا اليأس لم يرض أحداً : لأننا إذا قرضنا أن التخلف طبيعي ، فكيف نفسر البذاء والفحش في الكلمات والإيماءات الجنسية الورقة ؟ وهي كلمات وإيماءات لم يكن يعرفها هذا الصبي قبل الثالثة عشرة من عمره .

وأعيد الفحص النفسي على يد طبيب آخر وانتهى هذا الطبيب الآخر إلى هذه المقدمات والنتائج : هذا الصبي هو وحيد أمه ، أي أنه نشأ مدللاً ، لم يصادم قط في طفولته بما يصادم به الطفل حين يجد له أخوة في البيت ، وكان لهذا السبب مذهباً يتسم ويأمن الدنيا التي رستمها له أمه في طمأنينة وسلام . فلما ذهب إلى المدرسة وجد أجلاً كبيراً من التلاميذ يعتدون عليه ، كما وجد حركة وصخباً . فدافع عن نفسه بالكلمات والإيماءات البذيئة لأنها تكسبه سيطرة سهلة . ولو أن هذا الصبي كان قد أرسل إلى مدرسة خاصة ، من مدارس الأثرياء حيث يجد في الوسط الجديد ظروفاً تشبه وسطه القديم في البيت لما تخلف في الدراسة ولما لجأ إلى البذاء والفحش

ولكن هذا التفسير لم يقنع أحداً . إذ هو تفسير سطحي واضح السطحية

وجيء بالطبيب الثالث . وبحث وخص

وانتهى هذا إلى القول بأن بالصبي بداية شيزوفرينيا . ويعنى هذا
المرضى أن المريض يتفصل من الدنيا ، نفسياً ، انفصالياً تماماً . أو
كالتام . فيهمل الواقع ويستسلم لحيلالاته وأحلامه . وذلك لأنه يكره
الواقع ولا يطيقه

ولنماكره هذا الصبي الواقع لأنه خرج من بيته وهو مدلل عند أمه
لا يجد أية صعوبة في الدنيا . كل شيء وفر له . ووضع في مدرسة يجده
فيها الصدمات تلوي الصدمات من الدروس إلى المعلمين إلى الزملاء
الأجلاف من التلاميذ . فشرع يتخيل ويحلم . أى شرع يتكاسل
ويتنابذ . وربما ينتهى بالانفصال التام من الواقع ... أى الجنون
ولكن الأم والناظر والمعلمين وسائر الاطباء النفسيين لم يقتنعوا
بهذا التفسير بل عدوه سخافة ، لأن الشيزوفرينيا لا تصيب الصبيان مثل هذه
الأسباب الصغيرة بل التافهة . وفي كل إنسان منا قدرة على التكيف
للأوساط الجديدة إذا لم يكن الاختلاف بينها وبين الأوساط السابقة
كبيراً فادحاً

وجيء بالطبيب الرابع . فبحث وخلص وانتهى بأن عند الصبي
مركب نقص ، ذلك أنه نشأ وحيداً في نعومة ورفاهية وسهولة . ثم
فوجيء بوسط المدرسة وما فيه من خشونة ومشاق وصبيان كبار
فأراد أن يتعوض عن نقصه بوقاحة اللفظة وفحش الإيذاء
ولكن هذا التفسير لم يقنع احداً أيضاً
وأخيراً جاء الطبيب الخامس ، جاء وهو يسير بخطوات كأنها وثبات
من المرح والنبظة ، وهو يقول : « وجدتتها ! »

ماذا وجد ؟ وجد « مركب أوديب »

والتفتت العيون وانتبهت العقول ... الولد يمشق أمه

قال الطبيب : إن الصبي كان سوياً إلى سن المراهقة حين شرع بعد ذلك في النشاط الجنسي الإنفرادي ، يقفل على نفسه الغرفة ويستسلم للخيالات الجنسية . ويكاد جميع الصبيان يفعلون ذلك في هذه السن . ولكن الذي وجدته هذا الطبيب عند هذا الصبي أن خيالاته كلها وقت هذا النشاط كانت تتركز في أمه . والصبي ينكر ذلك حين يكون في وعيه . ولكنه حين تسلط عليه الاسئلة وهو في الاسترخاء ، أضحى حين يستسلم لعقله الباطن ، يعترف بأن أمه هي موضع نشاطه الجنسي الانفرادي . وأخذ الطبيب يشرح :

وضعت الأم ابنها قبل ١٣ سنة . وكان عمرها وقتئذ ٢٢ سنة شابة حلوة ، تضم الطفل إلى صدرها فيجد الطراوة والنعومة ، وفي كل طفل نوازع جنسية مبهمه تعم الجسم كله تقريباً ثم تتحيز مكانها المعروف بعد ذلك في سن المراهقة . ولما مات الأب رأت الأم في ابنها « رجل البيت » الذي يقوم مقام والده . وكانت أيام والده تقدم له فطوره وهو في السرير ، فلما مات والده صارت تفعل مثل ذلك مع الابن . أليس هو الذي أخذ مكان أبيه في البيت ؟

ولما بلغ الصبي سن المراهقة وجد أن قامته تعلو قامة أمه . كما لو

كان زوجها وليس ابنها

ذكريات الطفولة ، ذكريات النفس ، قد انتعشت أيام المراهقة ، ولكن ماذا في كل هذا مما يلقي شعاعاً على حالته الحاضرة في تخلفه عن دروسه وفي غرامه بالكلمات والایمات المفاجئة التي حملت ناظر

المدرسة على التفكير في طرده من المدرسة ؟

الصبي ابن وزوج . هذه حالة لا تطاق

هو بين حب وكفاح : حبه لأمه الذي لا يقدر على رده ، والذي يتضح له من خيالاته وقت نشاطه الجنسي الانفرادي ، وكفاحه حين يحاول أن يطرد من ذهنه هذا الحب الذي يعرف أنه دنس ونجاسة ، وأن علاقته بأمه يجب أن تقتصر على الاحترام

والصبي في عجزه يحاول في تعب وحيرة أن يحل اللز وهو يحله بأسلوب الأطفال أو الصبيان : فإنه يدافع عن نفسه بكلمات فظة بذمّة عن الشؤون الجنسية

وإذن هو في اختلاط ذهني يعطله عن الدرس . وهو في هذا جنسي يدافع به عن موقفه السري

ولكن ما هي نصيحة الطبيب هنا بعد هذا التشخيص ؟

ينصح الطبيب بإرسال الصبي إلى مدرسة داخلية عدة سنوات حتى ينسى صورة أمه ، أو ينصح للأم بأن تزوج وتعقب له أخوة يزعجون منه موقف التذليل السابق الذي أدى إلى إحساسه الجنسي الحاضر

وإلى هنا أقف ، ولا أعلق . لأنني أحب أن يختم هذا الموضوع ، كما نقلته في أمانة ، في ذهن القارئ . بلا تدخل مني . وعلى القارئ أن يذكر أن البؤرة في سيكولوجية فرويد هي مركب أوديب ، أي حب الصبي لأمه حباً جنسياً

وأنا هنا ناقل محايد لا أكثر

الحجر والمخدرات الأخرى

جامع (في يناير من ١٩٥٦) خطاب مهيب اجزى منه

ما يلي :

« .. وأنا شاب في الثامنة والعشرين من عمري وجندي في الجيش متزوج منذ سبعة أعوام ولدي ثلاثة أولاد ، وقد أدمنت على تصاطي الأفيون منذ خمسة عشر عاما ، وكل نقودي تذهب في هذا المخدر الملعون الذي تعلقت به من رفاق الصبا . وعندى رغبة شديدة جداً في التخلص منه ولكنني لا أستطيع مطلقاً التخلص منه ولو ليوم واحد . وأنا أحب زوجتي وأولادي جداً ومن أجل هؤلاء أريد أن أتخلص منه فأرجو أن تدلني ياسيدي الكاتب العظيم على الطريق الذي أسلكه . وقد التجأت إليك وأملى عظيم في أن تهديني إلى الطريق الذي أسلكه في التخلص من هذا الداء . وهل هناك أمل في أن أتخلص من هذا المخدر علماً بأنني لا أقوى على البعد عن أولادي بدخول مستشفى ، وإنني على استعداد لتنفيذ كل ما تراه لكي أعود إلى حياة جديدة .. »

هذا واحد من عشرات الألوف الذين يتعاطون المخدرات . ومع
أننا قد أوجدنا قوانين قاسية ، بل غاية في القسوة ، لمراقبة المتجرين
بالمخدرات والمتعاطين لها ، فإننا ما زلنا نجد لهذه التجارة سوقاً سوداء
في أنحاء بلادنا . وهذا برهان على أن قسوة القوانين لا تجدى في الوردع ،
وإنما المجدى هو أن نبسح عن جذور الجريمة ونقتلعها من مكانها

وجذور الجريمة هنا أننا جميعاً في مجتمعنا المتمدن نكاد نعيش على
أعصابنا مرهقين متوترين ، ونحتاج إلى المنبهات والمخدرات . ونحن
نتناول منها القهوة والشاي والدخان والخمر . وجميعها مخدرات أو منبهات
تنش الجسم أو العقل أو تخدره بعض الوقت . وحكومات العالم المتمدن
كاه لا تعارض في استعمالها

ذلك أن حياتنا الاجتماعية العصرية تحتوى الكثير من التوترات
التي لم يكن يعرفها أسلافنا في بيئاتهم الريفية المطمئنة . كما أننا نخلو من
إيمانهم المطلق بالقدر ولا نرضى بالقناعة التي كانوا يرضونها . فإننا نحيا
بمواعيد ، ونصادف مخاطر ، ونطمح ونقلق . ولذلك نحتاج إلى مخدر
أو منبه . الأول يهدئنا فننسى همومنا والثاني ينهنا فنتحمل همومنا

وجميع الأمم الأوروبية تشرب الخمر فلا تحتاج إلى المخدرات
مثل المورفين ، أو الكوكايين ، أو الهيروين . وهى تبيع الخمر رخيصة
فيجد فيها الفقير مثلما يجد الثرى مخدراً حسناً يغنيه عن المخدرات
القاتكة

قد يقال إن إدمان الخمر يؤذى . وهذا صحيح ، ولكن الإدمان
وحده هو المؤذى . أما الاعتدال فلا يؤذى . بل الأرجح أنه يرفع

شارب الخمر خاصة بعد سن الخمسين والستين . لأن الخمر تبسط الشرايين في حين أن القهوة والشاي والدخان تقبضها ، ومن مصلحة المسنين أن تكون شرايينهم على الدوام منبسطة يجري فيها الدم ، ويصل إلى الأنحاء التي كان يمكن ألا يصل إليها بسبب تصلب الشرايين الذي ينشأ عادة في الشيخوخة ويجعل مسير الدم شاقاً أو قليلاً

وراييموند بيرل في كتابه « السكحول » يؤكد أن الخمر تطيل الأعمار إذا تناولت باعتدال . وهذا هو اختبار جميع الأمم ، حتى فرنسا التي يكثر فيها الإدمان المضر يكثر فيها أيضاً المعمرين بعد الخمسين ونحن تجاورنا سوريا ولبنان وتركيا ويونان وكلها تقريباً - حتى على المنع بالقانون - تزرع الأفيون والحشيش ، ولكن الفلاحين الذين يزرعونهما لا يتعاطونهما لسبب بسيط . هو أنهم يشربون الخمر التي تباع في بلادهم رخيصة . وليس في الدنيا أسهل من صنع الخمر . ولذلك يصنعها هؤلاء الفلاحون ويشربونها ولا يوجد بينهم من يتعاطى الأفيون أو الحشيش الذين يزرعونهما

يجب أن نجاه الحقائق بلا عبث أطفال ، ولنفكر تفكيراً عضوياً الحقائق إن حياتنا مليئة بالقلق ونحن نحتاج إلى ما يرفه عنا . وإذا كان قلقنا خفيفاً فإننا تنقع بالقهوة والشاي والدخان . ولكن إذا كان هذا القلق مرهقاً ، حين نخشى مثلاً الإفلاس في مضاربات البورصة أو نشك في نجاحنا في عمل معين . أو نخاف على أبنائنا أو أنفسنا من مرض ، أو نتوقع معارك ، أو تداخلنا شكوك بشأن صحتنا ، أو حين تضطرم الغيرة من المنافسة القاتلة في نظامنا التجاري الاقتتاني ،

في كل هذه الحالات نحتاج إلى ما يخفف عنا توتراتنا بمخدر

والخمر هي خير المخدرات

وأنا أكتب هذه الكلمات بعقلية مدنية لاشأن لها بالأديان. وقارىء
كلماتي إذا كان متديناً متحمساً لدينه يستطيع أن يهملها: ولكني أحب
مع ذلك أن أنبه إلى أن كثيرين من رجال الدين يستطيعون، كما هو
شأنهم على الدوام، إيجاد مخرج بالتأويل الحسز لمصلحة الصحة العامة
ولذلك أعتقد أنه يجب، وجوباً قاطعاً، على حكومتنا أن تيسر
للشعب شرب الخمر بأن تبيع صنعها وبيعها وإيجاد الحانات، مع الرقابة
الدقيقة، حتى تصنع نقيّة خالية من الشوائب المؤذية. ولكن أعظم
وسائل التيسير أن تباع رخيصة

وعندما تصبغ الخمر صناعة مصرية عامة فإننا يمكننا أن نزرع
بحور ربع مليون فدان أو أكثر من الكروم، تستخدم نحو ربع مليون
عامل في زراعتها واستخراج الخمر منها. بل نستطيع أن نصدر من الخمر
ما تبلغ قيمته ملايين الجنينيات للافطار الأوروبية التي لا تنضج فيها
الكروم كما تنضج في شمسنا وعلى أرضنا

ثم في الوقت نفسه لا نخشى الأخطار المهلكة من الأفيون والمورفين
والكوكايين والهيريون والحشيش. وأرجو القارىء ألا يعتقد أني
هنا جريء غاطر. فإن الخمر تباع في كل مكان في مصر ولكن
للأثرياء فقط، وذلك لارتفاع أثمانها. أما الفقراء فيعجزون عن شرائها.
وليس هذا عدلاً

فنحن نبيع الخمر للأثرياء الذين يستغنون بها عن المخدرات

هم تعاقب الفقراء لأنهم يشترون المخدرات الملهكة بدلا من أن نرخص
آمان الخمر حتى يشتروها ويشربوها كما يشربها الأثرياء
لو أن الخمر كانت تباع في مصر وخيصة وفيرة لما شقي هذا
السكين الذي شكا إلى تعاطيه الآفيون . وهناك آلاف مثله يعانون
مثل نكته التي لا تعود نتائجها على شخصه وحده بل أيضاً على زوجته
وأبنائه

ولست ، أخيراً ، أنكر أن ما نعانیه من قلق نستطيع أن نتخلص
منه بالتخليط النفسى . ولكن مثل هذا العلاج يعد ترفاً لا يطيقه غير
الأثرياء . إذ هو يتكلف كثيراً

والخمر هي ، كما قيل ، صابون الموم . أى علاج للقلق . وصحيح
أنها ليست العلاج الأمثل . ولكنها خير من جميع المخدرات الأخرى .
وإذا كانت توتراتنا الاجتماعية تطالبنا بالهروب منها بمخدر ما . فإن
الخمر هي خير المخدرات

وأحسن ما فى الخمر أنها لا تطالبنا بزيادة الجرعة ، فإذا كنا فى
سن الخمسين مثلاً نتناول ثلاثة كؤوس ونكتفى بها ، فإننا نبقى على هذه
الجرعة عشرين أو ثلاثين سنة بلا تغيير . وهذا خلاف ما يحدث فى
المخدرات الأخرى التى نقتاد نزيد منها حتى نبيت ضحاياها
لقد جربت أمتان عظيمتان من أعظم الأمم المتمدنة فى العالم
تجربتين تستحقان التفاتنا فى صدد هذا الموضوع

الأمة الأولى هى الولايات المتحدة التى منعت الخمر منعاً شاملاً
وبأنا أكثر من عشر سنوات ، فكان كل من يصنعها أو يبيعها يعاقب

يا قسى العقوبات . لماذا كانت النتيجة ؟
كانت انتشار المخدرات المهلكة الأخرى ... الأفيون والحشيش
والهروين والكوكايين والمورفين . وكان أيضاً بيع الخمر السيئة ، بل
السامة ، التي يصنع كحولها من الخشب

وعادت الولايات المتحدة ، وهى نادمة ، إلى إباحة الخمر
هذه تجربة . والتجربة الثانية قامت بها حكومة سويد
فقد حددت سويد بيع الخمر ، وجعلت الحاق - البائع للخمر في
الحانة - موظفاً حكومياً له حق الامتناع عن البيع إذا وجد أن الشارب
قد ثمل ، كما جعلت بيع الخمر بالبطاقات . ثم ماذا ؟

ثم انتهت إلى أن جميع هذه القيود لا تجدى لأن شريب الخمر
يستطيع الحصول عليها بألف طريقة وطريقة ، فألغتها ، وأصبحت الخمر
مباحة لجميع أفراد الشعب

وهنا ذكرى . ففي حوالى سنة ١٩٢٠ كان شبابنا قد انغمسوا في
الكوكايين المخدر المهلك فسننا قانوناً لمعاقبة المتجرين به . وكان الأجانب
المقيرون في بلادنا لا يزالون يستمتعون بامتيازاتهم ، وكان من هذه
الامتيازات ألا يعاقب أحد منهم على عمل لا يعد جريمة في بلاده .
ووجدنا ، وهنا العبرة ، أن كثيرين من الأجانب المتجرين بالمخدرات
عندنا لا تمكن معاقبتهم لأن بلادهم لا تعاقب على هذه الجريمة . ولماذا
لا تعاقب ؟

لأن مواطنهم يشربون الخمر ويقنعون بها ولا يعرفون المخدرات
الأخرى ، ولذلك لم تنص قوانينهم على عقوبة لتجارة لا يعرفونها

هنا تجربتان تحثان على التفكير ثم على العمل
إلى أعرف، بل أؤمن، بأن المستقبل سيؤيدني. ولكن لماذا لا تبدأ
من الآن؟

مع كل ما ذكرت عن الخمر والمخدرات أحتاج إلى أن أذكر أيضاً
للقرءاء أن الرغبة فيها جميعها تعود إلى مركبات وتوترات. وأن الرجل
السليم، الذي يسلك في الحياة سلوكاً سليماً ينادى به عن القلق والخوف،
والحساس النقص. بجميع أنواع النقص، هذا الرجل لا يحتاج إلى
خمر أو مخدرات. بل أحياناً لا يحتاج حتى إلى القهوة والشاي والتدخين.
وكل منا يعرف الناس الذين امتازوا بهذه الميزة
ولكن أكثرنا ليس على هذه الحال

ثم لست أنكر أننا نستطيع أن نعالج، بالتحليل النفسي، المدمنين
على الخمر أو المخدرات. وذلك بأن نستخرج منهم المقدد الدفينة التي
حملتهم على أن ينشدوا السعادة بالنسيان، أي الهروب، وبأن نحملهم على أن
ينشدوها بالوعي والتأمل. وفي مجتمع سليم لا يبعث على القلق والخوف
نستطيع أن نجد السلام النفسي بعم جميع الأفراد. ولكن للأسف
لا يمكن أن نقول إن مجتمعنا الاقتران الرأقي القائم على المباراة القائمة
التي تولد الغيرة والخوف، لا يمكن أن نقول إن مجتمعنا هذا سليم

والخمر هي أقل المخدرات إيذاء للنفس والجسم. وجميع المتمدنين
يشربونها في اعتدال، وبأسلوب متمدن لا يجعل منهم حيوانات، ولا
يقتلهم عقولهم ويفسد نفوسهم كما هو الحال في أولئك الذين يتناولون
المخدرات. وجميع الأمم التي عرفت الخمر والمخدرات أجازت الأولى

ومتعت الثانية . وقد فعلت ذلك حكومتنا ، اليقين الثابت بأن الخمر، مهما تجاوزت مستعملوها حدود الاعتدال، فإنهم لا يزالون أقل تعرضاً لخطرها من أولئك الذين يستعملون المخدرات . نحن نبيح بيع الخمر في مصر ، ولكننا نعاقب بالسجن المؤبد أولئك الذين يبيعون المخدرات . ونحن نبيح لكل مصري تناول الخمر إذا كان قادراً على أداء أمانتها الباهظة، ولكننا نعاقب من يستعمل المخدرات بالسجن خمس أو عشر سنوات .

وفي هذا برهان واضح على أننا نخشى خطر المخدرات ولا نخشى خطر الخمر . ولا أعتقد أن هناك من لا تهز ضميره هذه العقوبات القاسية التي يلقاها المتجرون بالمخدرات ومتناولوها . وكان يمكننا أن نستغنى عنها لو أن الخمر كانت رخيصة متاحة للحشاشين والأفيونيين . وليس هذا رأي وحدي وإنما هو رأي جميع رجالنا الذين يكافحون المخدرات في بلادنا أيضاً

كيف نتعلم السعادة

تعلّمها بأن نساعد الناس كما نساعد نحن . وذلك الذى يستهلك سعادته دون أن يشترك فيها غيره لن يحصل على كل ما يستحق أو يطلب منها . ذلك لأن الأناية وحدها لا تسعدنا . إنما الذى يسعدنا أننا نحن أننا مشتركون مع غيرنا

وقد يكون هذا الاشتراك شخصياً حين يسعدنا مثلاً أن نساعد أمهاتنا أو أبناءنا أو أصدقاءنا . أو حين نساعد طفلاً يتيماً أو أسرة بائسة . ولا تزال في ذهنى صورة سيدة أرملة مات زوجها ولم يعقب . فتبنت عملاً خيرياً هو العناية بمعهد للصبيان اليتامى كانت تهتم بهم وتعتب وتغرق من أجلمهم كما لو كانت أمهم التى تسعد بسعادتهم . وكانت سعيدة حقاً

وهناك نوع آخر من السعادة لانعرف فيه شخصاً معيناً أو أشخاصاً معينين نساعدهم ونساعد بسعادتهم . وذلك حين نحس اندغامنا في قوميتنا ووطننا ، أو فيما هو أكبر من ذلك ، أى الإنسانية . فنخدم مبدأ وتدعو إلى مذهب ، ونكافح ونتعب لأننا قد رسمنا حالاً مثلى للوطن أو للإنسانية نهدف إلى تحقيقها ، ولا نبالي ما نلاق من آلام في سبيلها

هذه هي السعادة الكبرى التي لا نبأى أن نفقد سعادتنا الصغرى في سبيلها . فإلهوم الشخصية مثل الأثر ، والنجاح ، وتحقيق الملمات الشخصية ، كل هذا لا قيمة لها عندئذ في جنب هذا الأمل الكبير الذي يغيرنا

وعندما نصل إلى هذه الحال العالية يكون لارتقاء الصين ، أو انتصار السلام ، أو ظهور دواء للسرطان ، أو هزيمة الجبل والفقير والمرض في مصر ، أو زوال الاستعمار ، أو نحو ذلك ، ما يملأنا سعادة لا تقدر بجانبها أية سعادة شخصية أخرى . وعندئذ نفكر بالعقل العام والاعتبارات العالمية

ولكن يجب أن تتدرب على السعادة منذ طفولتنا . التدريب الذي يفهم منه الصبي والناجب كيف يتجاوز شخصه إلى أمه . ثم بعد ذلك يتدرب على سعادة أرفع وأكبر . وهي كيف يتجاوز بحبه أسرته إلى وطنه . ثم إلى العالم ، أى إلى الإنسانية

ألف الدوس هكسلى الأديب الانكليزى (الأميركى الآن) كتاباً عن الميسكالين

والميسكالين مادة مخدرة تستخرج من جذور الككتوس الذى نعرف من أنواعه في مصر ، التين الشوكى . ولكنه يختلف عن المخدرات ، كما يزعم الدوس هكسلى الذى جربه جملة مرات

ذلك أن المواد المخدرة تخدر عقولنا وأجسامنا معاً . أما الميسكالين فيخدر الجسم فقط . ويجعل العقل على يقظة كبيرة . ولكنها ليست يقظة التفكير المنطقى وإنما هي يقظة وجودية حتى لرى النور أضوا .

والزهر أنضر . والإحساس بالرضى كاملاً . وهذا مع استرخاء عضلاتنا
سعداء

ونحن هنا السعادة المصنوعة ، المجلوبة . بل السعادة الزائفة
ويقول الدوس مكسلي أن هذا الميسكاليين يمتاز علي جميع المخدرات
والخمر من حيث أنه لا يطنى العقل . وأيضاً لا يضر
وواضح أن الرجل السعيد حقاً ، الذي تنبع السعادة من قلبه كما لو
كانت إشعاعاً نفسياً ، لا يحتاج إلى الخمر أو المخدرات أو الميسكاليين .
وكلنا يعرف هؤلاء السعداء الذين لا يحتاجون حتى إلى فنجان من القهوة
أو الشاي فضلاً عن المخدرات أو الخمر
وقد كان برنارد شو كذلك

كان كذلك لأنه كان سعيداً بأن أسعد غيره . وكان سعيداً أيضاً
بأن اعتنق الاشتراكية منذ شبابه وجعل منها كفاحاً لحير الإنسانية .
فأصبح إطار نفسه العالم الكبير ، وليس شخصه الصغير . كما أنه كان فناناً
بلتذ صناعته ولا يسأماها

وكثيرون منا قادرون على ذلك إذا تدربوا على الحب والخدمة ،
وإذا اعتنقوا المذاهب الإنسانية التي تغمر نفوسهم بل تغنى فيها نفوسهم ،
ولكن منا من يعجزون عن ذلك أيضاً . ولذلك يلجأون إلى الخمر
أو المخدرات

كثيراً ما أتأمل السعداء الذين ، كما قلت ، تنبع سعادتهم كما لو كانت
إشعاعاً من نفوسهم . فأجد فيهم هذه الصفات التالية :
لأنهم غير أنانيين . فإن الأناى الذى يتعب كى يثرى ويقتنى ليس

سعيداً لانه في الأغلب يحيا في جو من البغض يثير في نفسه أيضاً بعضاً
فلا يجد ذلك الحب الذي يستمتع به غير الانانيين . ثم ان انانيته لا
تعرف حدوداً فهو دائم الإهتمام والهـم ، يحاول الزيادة في الاقتناء .
مثل أحد الأشخاص في قصة لتولستوى ما زال يقتني ويثري حتى خطر
له أن يخرج كى يعرف جدوه أرضه الواسعة . فشرع يسير فيها ، ويشترى
زيادة عليها كلما استراح في مكان منها ، حتى مات قبل أن يصل إلى
نهايتها . وقل أن تجد رجلاً ثرياً مفرطاً في الثراء في عصرنا وظروفنا إلا
وهو مريض نفسياً وجسدياً : لأن مشاكل الاثراء كثيرة مرهقة لا
يحملها من يفرط في مطامعه

ولكننا نجد السعداء حيث نجد الحب للغير ، وحيث الإنسانية والفن
والرسالة ، فالأم التي تحب أنها سعيدة بهذا الحب . ولكنها تبشئ إذا
جعلت هذا الحب انانية . كأن ابنها بعض مقتنياتنا التي تخشى ضياعها
حتى ليعود اهتمامها به همّاً وقلقاً . وهي تحدد طاقاته وتحول دون نموه
النفسى والعقل بهما وقلقها

والفنان سعيد بفنه لأنه يرتقى به ويجد فيه الجمال أو الكفاح
المنشود

وصاحب الرسالة سعيد برسالته . وهو يكبر بها وينضج مهـما
استهلك من قواه ومها عانى من فقر وحرمان بسببها
ورجال المذاهب والمبادئ سعداء أيضاً لأنهم يهدفون منها إلى خير
الإنسانية

وخلاصة القول أننا حين نهدف إلى السعادة يجب أن نتجاوز
نفسنا وأشخاصنا وأنانياتنا إلى ما هو أعلى منها جميعاً

الرقص

لكل إنسان شخصية جنسية هي دليل مكانته من الجنس الآخر .
 فقد يكون أحدنا مربوكمأ خجلا في حضرة المرأة - أو العكس - أو قد
 يكون لبقاً رشيماً . وهناك احترام أو احتقار نخص بهما المرأة أو الرجل
 لسلوك أحدهما في حضرة الآخر . والرجل الذي يطمع إلى شخصية
 محترمة لا يمكنه أن يرضى بموقف الخجل والاضطراب والخرس في
 حضرة الجنس الآخر . لأنه يحس أن له كرامة جنسية وأنه محتاج إلى
 احترام المرأة أيا كانت، غريبة أم قريبة كهلة أم شابة . وهو حين يحس
 الاحتقار لنقص في شخصيته يضطر إلى الانزواء الذي يؤثر في نجاحه
 واتجاهه بل أحياناً في اتجاهه الجنسي

وحالنا في مصر سيئة كل سوء من هذه الناحية ، وهو اقرب
 هذه الحال أسوأ . فإن الانفصال العام بين الجنسين يحيلنا في بعض
 الظروف إلى أجلاف في الكلمة والإيماء والسلوك العام . وقد يكون
 الشاب من أقوم الناس أخلاقاً وأسمام رقياً ولكنه ، للانفصال
 السابق مدى حياته ، لا يعرف كيف يتعد إلى فتاة . فإذا حان وقت

الخطبة للزواج عمه اضطراب وخجل يجعلان الفتاة تحتقره وتؤثر عليه من هودونه في الأخلاق والرقى ، لأن لهذا شخصية جنسية حسنة . أو قد يحدث العكس ، أى يكون النقص في الفتاة حين تنعقد إلى خطيبها فبرى فيها جالا ، ولكنه الجمال الخشبي ، لأنها صامته سا كنة قد شملها الخجل والجمود

ويجب أن نصرح هنا بكلمة مؤلمة ، هي أن هذا الإضطراب الذى يعرفه الشاب أو الفتاة وقت لقائهما إنما ينشأ من الانفصال التام السابق . لأن هذا الانفصال قد ملاّ الذهن في الأغلب بخواطر تناسلية . ذلك أنه حين تنعدم الصلات الاجتماعية بين الجنسين ، فلا يكون لقاء في حفل ، ولا مناقشة في ضيافة ، ولا جدال في ناد ، ولا معاملة في تجارة ولا مؤانسة في زيارة ، ينحدر الخيال إلى الأصول البيولوجية الأولى . فالرجل ذكر فقط . والمرأة أنثى فقط . والاضطراب يحدث عند الاجتماع ، عقب الانفصال السابق الطويل . فيكون ، أى الاضطراب ، برهاناً على هذا الخيال البيولوجى التناسلى الذى لم يجد قط ما يهذبه من علاقات اجتماعية أخرى

ويجب أن نعالج هذه الحال السيئة في مجتمعنا بالتعليم الإبتدائى المشترك ، فلا تكون مدارس خاصة للبنين وأخرى خاصة للبنات بل يتعلم كلاهما في مدرسة واحدة . تقعد البنت إلى جنب الصبي . ونستطيع أن نجعل هذه الحال عامة في المدارس الإبتدائية وفي الجامعة . أما المدارس الثانوية فلا بأس من الفصل ، لأن ثورة المراهقة تجعل الاجتماع خطراً . كما يجب أن نكثر من اجتماعاتنا المنزلية ، وفي النادى

الرياضى أو الثقافى ، وسائر الاجتماعات التى يجتمع فيها الجنسان، فينشأ
عندنا جو متمدن يزيل عن الشاب والفتاة ذلك الإرتباك أو الخجل
الذى يسودهما فى بعض بيئاتنا فى الوقت الحاضر . وبذلك تسكون
لها الشخصية الجنسية الممتازة ، فالرشاقة ، والصراحة ، والسعادة
ولكن إذا كانت الحال قد بلغت فى السوء مدى بعيداً فإنها عندئذ
تحتاج إلى علاج حاسم . وهذا العلاج هو الرقص الذى يعد مرآة
ناجعة لإزالة مركب النقص ، الناشئ من ردائل التربية الانفصالية
السابقة . فالشاب الخجول المرتبك عندما يتمرن على الرقص — ويجب
أن يكون التمرين طويلاً ومختلفاً — يجد أنه قد حقق فى نفسه تغييراً
سيكولوجياً ، وأنه يحس كرامة جنسية جديدة وأنه رشيق لبق . وكل
هذا مما يعينه على النجاح فى الحياة المدنية ، لأن الشاب الذى يحس
نقصاً فى كرامته الجنسية يحس أيضاً مثل هذا النقص فى كرامته
الاجتماعية ، ويبقى على الدوام قلقاً قد يقع فى شذوذاً جنسية
والرقص — زيادة على ما ذكرنا — من أنجع الوسائل لمعالجة هذه
الشذوذاً الجنسية ، لأن الرجل الذى يرقص مع امرأة يتجه الإتجاه
الجنسى الصحيح بلا انحراف أو زيغ إذ من غير المعقول أن يلتفت إلى
غير المرأة فى الخيال أو الواقع

وهذا كسب كبير لكثير من الشبان الذين تقدمت بهم السن فى
العزوبة فزاغوا وانحرفوا . وفى مصر يشيع الانحراف الجنسى أكثر
مما يشيع فى أوروبا . لانفصال القائم بين الجنسين ، لأن الخيال لم يدرب
على الجنس الآخر بالمعايشة السابقة والاتلفة الطويلة . فهو يشطح

ويشد . ونحن حين نأتى بالشباب الشاذ ونحمله على الرقص مع الجنس الآخر ، وليس هذا سهلاً نحاول أن نرده إلى الهدف الجنسي الصحيح . وهو عندئذ يكسب شخصية جديدة يسترد بها صحته وكرامته .
الجنسيتين معاً

وفي طورنا الاجتماعى الحاضر قد يشق على العائلة أن تنصح لفتاتها بالرقص . ولكن إذا كان هذا الرقص فى العائلة أو فى النادى المحترم فليس هناك أى ضرر من هذه المراهنة المفيدة لتصبح شخصيتها المريضة

فهرس

صفحة

٥	العواطف المضغوطة والسلوك الشاذ
١١	المرضى الذين يعلموننا
١٩	النفس السليمة فى المجتمع السليم
٢٥	هذا العالم الجديد
٢٣	مرضى النفس وعلاجهم
٤١	نحن نفكر بأفواهننا
٤٧	اللغة أعظم أدواتنا الاجتماعية
٥٥	الكتب العظيمة التى تربينا
٦٣	كيف نتعلم العبقرية
٧٣	الايمان بالأرواح مرض
٧٩	سيكلوجية الصحافة
٨٥	الاستقلال هو الشرط الأول للشخصية
٩١	السعادة هى أن تمارس الحياة
٩٥	لا تكن فى حرب باردة مع نفسك
١٠٣	التنويم المقيم

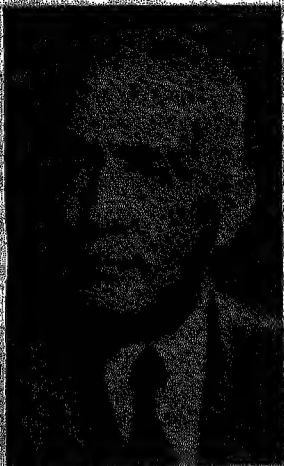
صفحة

١١١	سيكلوجية الشيخوخة
١١٧	سيكلوجية الشيخوخة أيضا
١٢٥	حياتهم تافهة
١٢٣	أوذيب صبيا
١٤١	الحمر والمخدرات الأخرى
١٤٩	كيف نتعلم السعادة
١٥٣	الرقص

مؤلفات سلامة موسى

وتواريخ صدورها

١٩٤٥	٢٤	حربة العقل في مصر	١٩١٠	١	مقدمة السبرمان
١٩٤٥	٢٥	البلاغة المصرية واللغة	١٩١٢	٢	نشوء فكرة الله
١٩٤٦	٢٦	التشيف الذاتي	١٩١٣	٣	الاشتراكية
١٩٤٧	٢٧	عقلي وعقلك	١٩٠٤	٤	اشهر الخطب
١٩٤٧	٢٨	تربية سلامة موسى	١٩٢٥	٥	الحب في التاريخ
١٩٤٧	٢٩	فن الحب والحياة	١٩٢٦	٦	أحلام الفلاسفة
١٩٤٩	٣٠	طريق المجد للشباب	١٩٢٦	٧	مختارات سلامة موسى
	٣١	(مجموعة قصص)	١٩٢٧	٨	حربة السكر
١٩٥٠	٣٢	محاولات	١٩٢٧	٩	أسرار النفس
١٩٥٣	٣٣	هؤلاء علموني	١٩٢٧	١٠	تاريخ الفنون
١٩٥٤	٣٤	كتاب الثورات	١٩٢٨	١١	اليوم والغد
١٩٥٦	٣٥	الأدب للشعب	١٩٢٨	١٢	نظرية التطور
١٩٥٦	٣٦	دراسات سيكلوجية	١٩٣٠	١٣	قصص مختلفة
١٩٥٦	٣٧	المرأة ليست لعبة الرجل	١٩٣٠	١٤	الدنيا بعد ٣٠ عاما
١٩٥٧	٣٨	برنارد شو	١٩٣٠	١٥	في الحياة والأدب
١٩٥٧	٣٩	أحاديث الى الشباب	١٩٣٠	١٦	ضبط التناسل
١٩٥٩	٤٠	مشاعل الطريق للشباب	١٩٣١	١٧	جيوبنا وجيوب الأجانب
١٩٥٩	٤١	مقالات ممنوعة	١٩٣٤	١٨	غاندى والحركة الهندية
١٩٦١	٤٢	الانسان قمة التطور	١٩٣٥	١٩	ما هي النهضة
١٩٦٢	٤٣	افتحوا لها الباب	١٩٣٥	٢٠	مصر أصل الحضارة
١٩٦٣	٤٤	الصحافة حرفة ورسالة	١٩٣٦	٢١	الأدب الانجليزى الحديث
	٤٥	معجم الأفكار	١٩٤٢	٢٢	الشخصية الناجحة
			١٩٤٤	٢٣	حياتنا بعد الخمسين



كتب سلامة موسى هذا الكتاب للشباب ،
وتراوحت المواضيع التي تناولها بين اللغة
والأرواح والخمر والسعادة والرقص ، ولكنه
أول فرويد اهتماماً خاصاً . وهو يتساءل في أحد
الفصول عما تعلمنا من فرويد ،

ويجب

« لم تعلمنا فرويد علماً ، ولكنه فتح
بصيرتنا للفهم الطبيعية والأشياء ... »

« فتح بصيرتنا ، ثم نحن نحاول الآن أن نفتح
عقولنا بالعلم ، أي بالتجارب ... »

« تعلمنا من فرويد ، ومن أنصاره وأصدقائه ، أن السنوات الأربع
الأولى من العمر هي كثر العواطف الذي نشهد منه سائر أعمارنا . وإنما
عاطفة نيفة تختبئ في كيانات النفس فأنها ستثار وينفض عبارها على
حوادثنا إذا اصطدمنا بأحداث تولد ما يشبه أو يقارب تلك العواطف
الملدسة في نفوسنا أيام الطفولة »

المستقبل بالعلم والادب والحرية
والمستقبل بالعلم والادب والحرية

موسى سلامة
٢٥٠